مركز أمية
للبحوث والدراسات الإستراتيجية
Umayya center for research & strategic studies

مواطنـون لا أقليـات

د.عبدالله الطنطاوي
د. سماح هدايا
أ. مادونا عسكر
أ. محمد السيد
د. جورج صبرة
أ. دندل جبر
أ.عصام فارس الحرستاني

مركز أمية للبحوث والدراسات الاستراتيجية
www.umayya.org

مواطنون لا أقليات

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٤/١٠/٤٩٩٩)

دار عمار للنشر والتوزيع
عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com

مركز أمية
للبحوث والدراسات الإستراتيجية
Umayya center for research & strategic studies

مواطنون لا أقليات

د. عبد الله الطنطاوي
د. سماح هدايا
أ. مادونا عسكر
أ. محمد السيد
د. جورج صبرة
أ. دندل جبر
أ. عصام فارس الحرستاني

دار عمار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

د. بسام ضويحي
مدير مركز أمية
للبحوث والدراسات الاستراتيجية

رأى مركز أمية للبحوث والدراسات الاستراتيجية أن الحاجة ماسّة إلى الإسهام في معالجة بعض الأمراض الخبيثة الدخيلة على مجتمعاتنا العربية والإسلامية، كمرض الطائفية التي تمزق الأوطان، بجعل الوطن الواحد أوطاناً، والشعب الواحد شعوباً، حسب الأعراق، والأديان، والمذاهب.. كلٌّ له هويته، وانتماؤه إلى طائفته أو عرقه، حتى لو كان خارج وطنه، حتى لو كان عدواً لوطنه، فكان الانتماء إلى ما يُسمَّى (الأقليات) العرقية والدينية والمذهبية.. وليس إلى الوطن الذي ولد فيه وعاش من خيراته، حيث أن الفرز الطائفي والعرقي حالة دخيلة على أمتنا وحضارتنا وقيمنا وتراثنا، وقد تسللت الدعوة الطائفية والعرقية إلى مجتمعاتنا بناء على توصيات وثيقة كامبل الصهيونية عام ١٨٩٧ والتي نتج عنها اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ ووعد بلفور ١٩١٧ القاضي بتقسيم فلسطين، ثم تبعها المشروع العدواني اللئيم لليهودي الصهيوني برنارد لويس❖ الذي أعدّ مشروعاً متكاملاً وقدّمه إلى بريجينسكي مستشار الأمن القومي في عهد

الرئيس الأمريكي جيمي كارتر، يتضمن هذا المشروع تفكيك الوحدة الدستورية والسيادية لكافة الدول العربية والإسلامية وتحويلها إلى كنتونات ودويلات عرقية ودينية ومذهبية وطائفية. حيث تمت موافقة وتبني الكونغرس الأمريكي بالإجماع في جلسة سرية عام ١٩٨٣ لمشروع برنارد لويس وبريجينسكي حيث تم تقنين هذا المشروع المشؤوم واعتماده وإدراجه في ملفات السياسة الأمريكية الإستراتيجية معتمدة كذلك على رؤية وزير خارجيتها الأسبق هنري كيسنجر*.

فقد كان البعض منا يظن أن (رجال الدين) هم وراء الدعوة الطائفية، ويغزلون على مغزلها الديني، ثم تبيّن لنا أن رجال السياسة المؤتمرين بمشروع برنارد لويس وبرجينسكي هم وراءها، وهم الذين يدعون إليها، فالأديان لم تكن في يوم من الأيام تدعو إلى الفتنة،

❖ برنارد لويس يهودي صهيوني ولد في لندن ١٩١٦، حصل على شهادة الدكتوراة في التاريخ الإسلامي، انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٤ وحمل الجنسية الأمريكية، ارتبط بحركة المحافظين الجدد حيث تمكنوا من اختطاف السياسة الخارجية الأمريكية والبريطانية تحت ستار مكافحة الإرهاب، كان له دور كبير في وضع سياسة إعادة تشكيل الشرق الأوسط ليكون دائراً في فلك السياسة الأمريكية ومتقبلاً ومطبعاً لوجود اسرائيل، شغل منصب مستشار للرئيس الأمريكي بوش الأب وبوش الابن.

مقتبس من مقال الدكتور حسين عمر توقة بعنوان (مخططات لتفتيت العالم العربي والإسلامي. http://www.umayya.org/studies-ar/7236

وتمزيق الشعوب والمجتمعات، بل جاءت بالمحبة، والوحدة، والتعارف، والتآلف، لأنها – في أصولها الصحيحة السليمة من التحريف – صادرة عن الربّ الرحمن الرحيم.

ولهذا هي تدعو إلى التسامح، والتعايش السلمي المستمد من مبادئها وتعاليمها.

وعندما تعرضت بلادنا إلى الغزو الخارجي، رأينا دعوات مغرضة إلى تفتيت الشعوب، وبهذا وغيره، كان الغزو العسكري مصحوباً بغزو فكري..

سمعنا هذا من الصليبيين الذين أسموا غزوهم حرباً صليبية، فيما كان العرب المسلمون يطلقون عليها اسم (حرب الفرنجة).

ثم جاء نابليون، وكان كسابقيه، في غزوه مصر وبلاد الشام.

وجاء الاستعمار الغربي لبلاد العرب والمسلمين، ومنها سورية، فعمل الغزاة الفرنسيون على تمزيق النسيج الوطني السوري، وقسّم سورية إلى عدة دول، للعلويين دولة، وللدروز أخرى، وثالثة للمسلمين، ورابعة للموارنة في لبنان، ولم تصمد إلا هذه الأخيرة، بفعل أكثر من فاعل.

وجاء انقلاب آذار ١٩٦٣ وعمل عمله، وصرنا نسمع ونرى التمييز بين فئات الشعب التي كانت متآلفة، فصارت متعادية، حتى وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه من دمار قرأنا عن مثيله في الحربين العالميتين

الشنيعتين، فقد اعتمد البعث (العلماني) على (الأقليات) من أجل الإمساك بالسلطة فكرّس الانقسام، وتداعى الطائفيون من كل مكان، يحملون الموت للسوريين ولسورية التي احتلوها، ونكّلوا بأهلها، وشردوا ملايينها، وشعاراتهم الطائفية تملأ الجواء، ولم يسلم من شرورهم أحد، حتى العلويون أذلوهم ورئيسهم الذي فرّط بهم، كما فرّط بسورية.

إن شعورنا بالأخطار المحدقة بأوطاننا، كان الدافع لإصدار هذا الكتاب، فالنار الطائفية تأكل الأوطان بمن وبما فيها من حضارة ومدنية وقيم إنسانية وروحية.

وأجمل ما في هذا الكتاب أن مؤلفيه من مدارس فكرية متعددة، جمعهم حبُّ الوطن، والخوف عليه من المتآمرين في الداخل والخارج الذي كان وما زال يتكئ على من في الداخل من المتواطئين معه.

صرخة.. نرجو ألا تكون في وادٍ غير ذي زرع.

هكذا كنّا قبل الأسد

د. عبد الله الطنطاوي (سورية)

رئيس رابطة أدباء الشام

أنا من بلدة إعزاز، وهي مدينة صغيرة تقع شمالي مدينة حلب، على الحدود التركية، وُلدتُ وترعرعت فيها، ومنذ فتحت عينيّ على هذه الدنيا، رأيت جارتنا بالجنب، السيدة أم محمد، وهي امرأة أرمنية، من الأرمن الذين نزحوا إلى سورية، واستقرّ قسم منهم في بلدتي الصغيرة الجميلة إعزاز، وكانت لهم حارة ما تزال تحمل اسمهم (حارة الأرمن) ولهم سوق وكنيستان، ولهم فريق كرة قدم متقدم، يرأسه الكابتن (سيمون) يضمّ عدداً من أبناء إعزاز، فكان للأرمن أصدقاء كثر من أهل إعزاز.

وهناك جيران في حارتنا القبلية من الأكراد، والتركمان، والشركس.. فأما الأكراد فلهم سوق باسمهم، ولهم حارة، ومنبثّون في أكثر الحارات، وللتركمان بيوت وقصور وقرى وعقارات، منها قرى: تركمان بارح، وكفرغان، وشمّارين وسيجراز، ومرعناز، وسواها.

وهناك الأكراد اليزيديون في بلدة (عاشق كبار) وسواها من القرى، يرتادون مدينة إعزاز، يتسوقون ويبيعون ويشترون.

وفي إعزاز جمعية خيرية إسلامية فيها أكثر من مئة يتيم منها ومن القرى المجاورة من العرب، والأكراد، ومن اليزيديين، ومن سواهم،

تخرج في مدرسة الأيتام هذه آلاف التلاميذ، وبعضهم تابع دراساته العليا، أو دخل الجيش، أو أيّ عمل آخر، وصار عضواً نافعاً في المجتمع السوري.

كان كل أولئك على صلات طيبة بعضهم ببعض.. كانوا يتشاركون في الزراعة والتجارة، وكانوا يتزاوجون ويتصاهرون.. عندي عمي الشيخ عمر متزوج من كردية، وابن عمي ياسين متزوج من كردية، وله منها بنت فنانة تشكيلية مبدعة في ألمانيا، ولي خال هو الحاج مصطفى متزوج من كردية، ولي بنت عم متزوجة من ضابط كردي سرحه نظام البعث بحجة أن الجيش السوري جيش عربي عقائدي، ولا يجوز أن يكون في صفوفه كردي..

كان في إعزاز حكيم (طبيب) أرمني اسمه مهران، وكان فيها صيدلي أرمني، وخطاط بالحرف العربي من الأرمن، وعدد من التجار، ومصلحي السيارات وغيرها من الأرمن.

وكان من أعضاء رابطة الوعي الإسلامي (١٩٥٦- ١٩٥٧) أديب مسيحي هو الأستاذ إبراهيم إلياس، من قرية (السودة) التابعة لمدينة اللاذقية، لم يمنعه دينه أن يكون عضواً في هذه الرابطة الإسلامية التي أنشأناها ونحن طلاب في المرحلة الثانوية، وقد خصصتْ مجلة (الغدير) التي كانت تصدر في مدينة السلمية، ويرأسها الأستاذ مصطفى غالب، وهو من الطائفة الإسماعيلية – خصصت لرابطتنا هذه عدة صفحات ننشر فيها قصائدنا و قصصنا ومقالاتنا، وكلها ذات توجّه إسلامي ظاهر، تحت عنوان: (صفحة الوعي الإسلامي).

فتصوروا..

وكذلك مجلة (الضاد) الحلبية وصاحبها الشاعر الكبير عبد الله يوركي حلاق، وابنه الأديب رياض حلاق، من مسيحيي حلب الوطنيين المتشبعين بالقيم العربية والوطنية والإسلامية.

وبعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ جاءت عدة باصات تحمل عشرات الأسر الفلسطينية، وخفَّ أبناء إعزاز لاستقبالهم، ونزل في دارنا أسرة مؤلفة من زوجين وبنتين وطفل، ونزلت الأسر الأخرى في البيوت، في بيوتنا، وليس في مخيمات.. نزلوا معزّزين مكرّمين، يقدّم لهم الناس ما يحتاجون إليه، من سكن، وطعام، وشراب، وكساء، ودواء، ويساعدونهم في تأمين العمل المناسب لطالبي العمل، والقادرين عليه.

هذا في بلدتي إعزاز، وضربتها مثلاً لأني كنت شاهداً عليها.

كنا نتعلم في مدارس واحدة، وكنّا أصدقاء، يزور بعضنا بعضاً، وفي معهد العلوم الشرعية التابع للجمعية الغراء بدمشق، كان معنا الكثير من أبناء حوران، ومن سائر المحافظات الأخرى، وكان معنا طلاب أتراك، وأكراد، وفلسطينيون، وأردنيون، ولبنانيون.. وكذلك في العديد من المعاهد الشرعية المنتشرة في المحافظات السورية.

أما في جامعة دمشق التي درست فيها، فكانت تعجّ بالطلاب العرب وغير العرب، ومن المسلمين وغير المسلمين.

أستطيع في لحظات أن أتذكر العديد من الأصدقاء، من الأكراد، والشركس، والمسيحيين، والعلويين، والدروز،

والإسماعيليين، وسواهم وأعتزّ بصداقات بعضهم.. وعندما سرّحوني من عملي في وزارة التعليم، وكنت أدرّس مادة اللغة العربية في ثانويات حلب، أيام الرئيس نور الدين الأتاسي، ساعدني في العودة إلى عملي: علوي (الأستاذ ممدوح مدير التعليم الثانوي في وزارة التربية بدمشق)، وإسماعيليان (الرائد نزار الجندي وضابط آخر نسيت اسمه الأول وهو من بيت رسلان)، ولم يجرؤ أيّ بعثيّ من بلدياتي وزملائي في الجامعة والجيش، على تقديم أيّ مساعدة لي، لأنهم ليسوا من العلويين كما صارحوني.

إعزاز صورة مصغرة لسورية التي علّمت الدنيا ألف باء الحضارة.. علّمتها الأبجدية، وكانت مثالاً للمحاضن الإنسانية..

استقبلتْ مدنُها وقراها كلّ من ذكرت، إلى جانب شعوب أخرى استوطنوها، وكانوا من فسيفسائها الرائعة..

حتى الميليشيات الوافدة بل الغازية لسورية من الشرق والغرب، ومن الشمال والجنوب، التي تذبح الشعب السوري في هذه الأيام، وتدمّر البشر والحجر والحيوان والشجر، بقسوة ما سمعنا بمثلها إلا أيام الغزو المغولي، والحروب الصليبية، حتى هذه الميليشيات الوافدة من العراق، ومن (حزب الله) الذي استقبله أبناء سورية، خير استقبال عندما هرب من وحشية الجيش الإسرائيلي، ولجأ إلى سورية، لم يخطر ببال أيّ من مستقبليه السوريين الكرام، أنه سيكون في يوم قريب قاتل الشعب الذي آواه ونصره.

سورية احتضنت المسيحيين والأرمن والعلويين والدروز وسواهم، كما احتضنت المسلمين.. ولولا ذلك، لما كان لهم وجود اليوم.. لم يحمهم الغزاة المستعمرون، بل حماهم الشعب السوري بأريحيته، وقيمه العربية والإسلامية الأصيلة، والإنسانية، فهو شعب التمدن والتحضر والأخلاق السامية.

واحتضنت سوريةُ الأكراد والشركس والسريان والآشوريين كما احتضنت العرب..

ادرسوا تاريخها جيداً، فهو تاريخ حضاري مجيد.. منذ دخلها العرب الفاتحون، وحتى انقلاب البعث في الثامن من آذار ١٩٦٣م، الذي كان نقطة تحوّل في تاريخ سورية الإنساني، والأخلاقي، فقد كان التخريب الممنهج للإنسان السوري منذ مراحله الاولى طوال نصف قرن، يفعل فعله فيه، فظهرت الأمراض الخبيثة في المجتمع السوري، وفي طليعتها مرض الطائفية الذي قضى على روح المواطنة أو كاد..

ويجدر بي أن أذكر، أنّ أول من تنبّه إلى طائفية النظام الأسدي، أربعة شبان من البعثيين، من بلدتي إعزاز.

كنت في زيارة لأهلي في إعزاز، فزارني أولئك الرفاق الأربعة، وعلى رأسهم المحامي عادل كيالي، الذي بادرني بالقول:

- ألم يتنبّه الإخوان المسلمون، إلى أن انقلاب الثامن من آذار – هكذا والله – هو انقلاب علوي طائفي، ولا علاقة له بحزب البعث؟

فاجأني المحامي عادل بجرأته، وشككت به وبمن معه، وقلت في نفسي: "يريدون توريطي".

وأخرج الأستاذ عادل الذي يكبرني ببضع سنين، قصاصات من جيبه، وأعطانيها.

كان مكتوباً عليها:

"أمة علوية واحدة، ذات رسالة فاسدة"

تساءلت: ما هذا؟

قال: سوف نصعد فوق بناية العبَّارة – بحلب – وننشرها فوق رؤوس الشباب المتجمهرين لدخول سينما حلب، في الحفلة المسائية.

قلت: سوف يعتقلونكم.

قال: بل سوف يعدموننا إذا استطاعوا.

وقال آخر: نريدكم أن تشاركوا معنا، وتنالوا شرف الشهادة في سبيل سورية والأمة العربية التي جاء هؤلاء ليمزّقوها.

اعتذرت، وخرجوا غاضبين، وحدَّثتُ أحد الإخوان بما كان، فحذّرني منهم.

قلت له:

إنهم أصدقائي، وأبناء بلدي، وزملائي في المدرسة، وكثيراً ما كنا نتحاور حول الإخوان والإسلام، وحول البعث والقومية العربية.

قال: لا تورط نفسك، ولا تورط الإخوان معك.

قلت له: ألم يحتجّ الأستاذ عصام العطار، وهو المراقب العام للإخوان، لدى الأستاذ ميشيل عفلق، وكان يحذّر من عواقب تسريح الضباط المسلمين الأفياء، واستبدال المعلمين بهم، من العلويين ومن الأقليات الأخرى، ومنحهم رتباً عسكرية؟

قال الأخ: إذن دع الأمر للكبار ليتفاهموا، وأنا وأنت وجيلنا ليس من مهمتنا متابعة هذه الأمور والقضايا الكبيرة.

في مساء ذلك اليوم من عام ١٩٦٥ كانت حلب تتحدث عن تلك القصاصات، وعن إشاعة تقول: إنها من عمل مجموعة من الضباط المسرحين..

وبعد أيام، علمنا باعتقال مجموعة من (العملاء والخونة المرتبطين بالإمبريالية والصهيونية)، كانوا يخططون لعمل انقلاب عسكري على الحكم التقدمي، وعلى ثورة البعث في الثامن من آذار. وكان أولئك (العملاء والخونة) هم أولئك الرفاق الأربعة.

وبعد أيام، سلّموا جثة الأستاذ المحامي عادل لأهله، وهي ممزقة تحت التعذيب.

هذه شهادة للتاريخ، عن وعي أولئك الشبان البعثيين الأربعة، الذين كانوا طلائع الضحايا لذلك الانقلاب الذي غيّر وجه سورية، وضحّى بتوجّهاتها الوطنية والعربية والإسلامية، وقضى على روح

المحاسنة والتسامح التي كانت تسود المجتمع السوري بل والعربي والإسلامية..

في سورية بضع قرى شيعية، منها اثنتان تابعتان لقضاء إعزاز، هما: قرية نُبُّل، وقرية المغاولة – قلبوا اسمها إلى الزهراء بعد مجيء حافظ أسد – كانتا تعيشان بأمان وسلام مع أهالي إعزاز والقرى المجاورة لهما، وقد تناسى هؤلاء المسلمون المسالمون إساءات بعض شباب القريتين (نبّل والمغاولة) إلى الشعب السوري، عندما تعاملوا مع الاستعمار الفرنسي، وانضموا إلى جيش الشرق الذي شكّله الفرنسيون لإخماد الثورات السورية في حلب، والغوطة، وحماة، وجبل الزاوية، والحفّة، وسواها.. وقد سمعت الشيخين المجاهدين: أحمد الإمام الملقب بالشيخ المجهول، والشيخ علي حليمة (كورج) وكلاهما من بلدة عندان البطلة المنكوبةكسائر المدن والأرياف السورية في عهد الأسد – قرب حلب – يتحدثان لوالدي الشيخ محمود عن اتصالهما بوجهاء القريتين (نبُّل والمغاولة)، لعلهم يكفّون شبابهم المتعاونين مع الفرنسيين، عن إيذاء الشعب السوري، وأسر الثوار، فلم يستجيبوا لهما، إلى أن جلا الاستعمار عن سورية، تاركاً أولئك الخونة لمصيرهم.

وكذلك فعلوا في عهد حافظ وبشار أسد، ولم يعتبروا بما كان من أمرهم أو أمر آبائهم وأجدادهم مع الفرنسيين، فبشار سوف يرحل مع أهله – في أحسن أحوالهم – وسوف يتركهم لمصيرهم.

في العهد الوطني الديموقراطي بعد جلاء المستعمر، تصالح المواطنون، وتسامحوا، وتحاسنوا، حتى جاء حافظ أسد، فأثار ذوي النفوس القلقة، وعبّأهم ضد بعضهم بعضاً، وملأ الجيش - الذي كان لكل السوريين - منهم.. من غير المسلمين، وكان مصير كل محتجّ، الطرد من الجيش، أو الاعتقال، أو القتل في ظروف (غامضة) أو (الانتحار) الطوعي، أو المحاكمات الصورية في محاكم ميدانية هزلية.

في العهد الوطني لم يعتد الشعب السوري على عرض أحد ممن أساؤوا إليه، ولا على مال ولا كرامة، وجاء الانقلابيون الآذاريون، فقلبوا الموازين القسط، وجعلوا سورية مزرعة طائفية لهم، ولمرتزقتهم من الميليشيات الطائفية التي جاؤوا بها لتحتلّ البلاد، وتقتل وتطرد أهلها، حتى صرّح (الرئيس) بشار في آخر خطاب له: أن سورية ليست لمن وُلد فيها، أو حمل جنسيتها، وجوازات سفرها، بل هي لمن يدافع عنها، يعني عن نظامه القاتل، يعني لأولئك المرتزقة الغزاة القادمين من إيران وأفغانستان والعراق ولبنان واليمن وسواها..

كان من غير المسلمين ومن غير العرب، ضباط كبار، تسلموا مناصب رفيعة في الدولة السورية، وزراء، ورؤساء وزارات، وبرلمانيون، ورؤساء المجلس النيابي، ورؤساء أركان الجيش السوري، وفي طليعة أولئك: الرئيس فارس الخوري الذي كان مندوب سورية الدائم في هيئة الأمم المتحدة، ومندوب سورية في مجلس الأمن، وتسلم رئاسة الوزارة

السورية عدة مرات، ورئاسة البرلمان ثلاث مرات، وغيره وغيره كثر، فالمعوّل على الكفاءة، وليس على الدين أو العرق أو الطائفة.

بل إن الرئيس فارس الخوري كان يخطب في المساجد، ويفضح الاستعمار الفرنسي الذي عرض عليه وعلى غيره من زعماء الطوائف المسيحية، عروضاً سخيّة ليقفوا إلى جانبه، فهم مسيحيون، ويجب أن يكونوا ضدّ المسلمين.. قال الخوري هذا الكلام على عدد من المنابر، كمنبر المسجد الأموي في دمشق، ومنبر الجامع الكبير (الأموي) في حلب، وسواهما، وأحبّ أن أحيلكم إلى كتاب (فارس الخوري وأيام لا تنسى)، تأليف الأستاذ محمد الفرحاني، وكتاب (فارس الخوري: الوطنية، العروبة، الإسلام) تأليف المحامي محمد عنجريني، من مطبوعات مركز أمية للبحوث والدراسات الاستراتيجية، ففيهما الكثير الكثير عن هذا الفارس الوطني العلامة: فارس الخوري رحمه الله رحمة واسعة فقد كان مثال المناضل الوطني العروبي الإسلامي العملاق.

❖ ❖ ❖

تربيت في أحضان الإخوان المسلمين، وتشبعتت بآرائهم وسلوكهم الوطني العربي الإسلامي، وكانت وما تزال لي صلات وعلاقات وذكريات مع شخصيات أدبية، وسياسية، وفكرية، واجتماعية، مع السوريين غير المسلمين، وكان لمشايخي وأساتذتي: د. مصطفى السباعي، الأستاذ محمد المبارك، الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة، الأستاذ عدنان سعد الدين، د. حسن الهويدي والشيخ زهير الشاويش، وسواهم

من مفكري الجماعة وشيوخها، كانت لهم صداقات وصلات عميقة مع عدد من الشخصيات الوطنية من غير المسلمين، وفي طليعتهم: الرئيس فارس الخوري، ومنهم استقينا لبان الوطنية، وروح العروبة، وتعاليم الإسلام وقيمه ومبادئه التي تدعو إلى حبّ الوطن والوطنيين المخلصين.. وأحيلكم – في هذا السياق – إلى كتاب: (الأمة العربية في معركة تحقيق الذات)، وكتاب: (تركيب المجتمع السوري) وهو رؤية إسلامية مبكرة لحل الإشكال العرقي، والطائفي والحزبي، في سورية) وكلا الكتابين للأستاذ محمد المبارك، وكتاب: (المسلمون والنصارى: التعامل مع منظور إسلامي) للدكتور عبد الرحمن عطبة

❖ ❖ ❖

(الأقليات) كانت الذريعة لسايكس وبيكو في تقسيم الوطن العربي الذي وعدوا بأن يكون دولة واحدة، مستقلة تحت زعامة ملك العرب الشريف حسين، وقد انتُزع الوطن العربي من الدولة العثمانية، تتشكل منه اثنتان وعشرون دولة، وهاهي اليوم (الأقليات) تبقى الذريعة لتفتيت جديد.. لتقسيم كل دولة قطرية إلى دول، فدولة للعلويين، وأخرى للدروز، وثالثة للأكراد، ورابعة وخامسة وسادسة وعاشرة للمسلمين، وللمسيحيين، ولسواهم.. الغرب والشرق ومعهما إسرائيل، كلهم يعملون على تشكيل الشرق الأوسط الكبير كما يريده المحافظون الجدد في أمريكا أو الشرق الأوسط الجديد، كما يريده بيريز والصهاينة من اليهود والمسيحيين والعرب المستغربين المتصهينين.

وأخيراً نقول: في سورية (أقليات) دينية، وعرقية..

وبعض الأقليات تحتوي على طوائف متعددة، وليس طائفة واحدة، كما هي عند المسيحيين السوريين مثلاً: (أرثوذكس، كاثوليك، بروتستانت، لا تين، مارون، أرمن، آشور).

وهناك: العلويون، الدروز، الإسماعيليون، الشيعة، المرشديون..

وهناك: الأكراد، والشركس، والتركمان..

وهؤلاء مع المسلمين يشكلون نسيجاً سورياً وطنياً متعايشاً تعايشاً حضارياً رائعاً، ضمن عقد اجتماعي عفوي شفهي غير مكتوب، ولكنه معمول به منذ قرون، أجل منذ قرون.. وعن وعي لما يحوكه (الأصدقاء)..الأعداء للشعب السوري وللأرض السورية.. للوطن السوري شعباً وأرضاً وثقافة وقيماً.. على الصورة التي نشهدها ويشهدها العالم الظالم لهذا الشعب الأصيل.. الشعب السوري المنكوب بالعديد من (أبنائه) – زعموا – في الداخل و(أصدقائه) – زعموا – في الخارج، ظلموا الشعب كافة.. بكل فئاته وطوائفه، الكل مظلوم.. لا يتمتعون بالحدود الدنيا من حقوقهم المدنية والدينية والإنسانية.

وحتى نقطع الطريق على الذين عكّروه بأجنداتهم التي لا تريد خيراً بالشعب السوري، ولا بالشعوب العربية والإسلامية، من أجل ذلك، كان هذا الكتاب..

وكانت دعوتنا إلى التفاهم على إنشاء عقد اجتماعي مبني على قواعد وطنية أساسها: المساواة في الحقوق والواجبات.

رؤية في المواطنة

د. سماح هدايا (سورية)

وزيرة الثقافة في حكومة الائتلاف الوطني

تمهيد

لا يمكن تحقيق دولة مثاليّة. ومن الصعب أن يحصل الإلغاء الكامل لاستبداد الأغلبية. لكن بناء التعايش المرضي ضمن الصيغ القانونية والدستورية في مفهوم المواطنة ودولة المواطنة، هو الأمر الجوهري لأي وطن وأمّة في إطار الدول.

دولة المواطنة المنشودة لا تأتي عبر الإعلانات والشّعارات والتّعليمات القسريّة أو الورقية؛ فالمواطنة تحتاج لروح ولعمليّة بناء وتثقيف وتعليم وتوعية وبرامج عمل. يبدو الوطن للإنسان منبع الكينونة وحاضن الهوية السياسية والمجتمعية والأخلاقيّة. لا يمكن فهم الوطن خارج إطار النظام السياسي والاقتصادي والإداري والثقافي المجتمعي لعمليّة المواطنة التي ينتجها المواطن والوطن ضمن ظروف تاريخيّة. فلا تتحقق المواطنة في بلد لا يحترم مواطنيه، وفي بلد لا يحترمه مواطنوه. أو في بلد يحتله عدو أو يحكمه طاغية. أي بجانب مفردة المواطنة هناك واقع كبير يتمتع المواطن فيه بالحقوق ويلتزم، مقابل ذلك، بمنظومة واجبات يفرضها عليه انتماؤه إلى وطنه.

عملية المواطنة مرتبطة أساساً بالحرية والعدالة والمساءلة. ومرتبطة بالوعي الفردي والمسؤولية الاجتماعية والوطنية والمجتمعية.

لا تأتي المواطنة دفعة واحدة، وبكبسة زر، أو بأمر فوقي. هي عملية تراكم تحتاج إلى زمن عمل وبرامج عمل وإجراءات عمل وآليات تنفيذ؛ لكنّها تتعمّق وتتجذر؛ وتتكرس بالقيم الديمقراطية وبسيادة القانون والمساواة أمام القانون مع احترام القانون. أي بالمعنى العام هي علاقة بين فرد ودولة وفق قانون تلك الدولة ودستورها. ضمن رابطة هي المواطنة.

ولتوضيح مفهوم المواطنة. هناك مسائل ترتبط بنيوياً بالمواطنة. لا بد من فهمها:

مسألة التعايش

إنه لتحدٍ حقيقي تحقيق التعايش السلمي. خصوصاً بين الذين بينهم تاريخ ثأر وحقد وضغينة واختلافات.

يبدأ التعايش في دولة المواطنة، بقبول التنوّع وبقبول الآخر، والانفتاح للتحاور مع المختلف عقائدياً وعرقياً، انطلاقاً من حق حرية الرأي، وتحت مظلّة العدل السياسي، الذي يشمل المختلفين والمتفقين. وما يقابل ذلك من الاحترام والمسؤوليّة والالتزام بالقانون والسلم. أمّا العنف؛ فيهدّم نمو دولة المواطنة ويوقف تطوّرها.

إقامة التّعايش يكون وفق قواعد يتفق عليها الجميع ويجري النظر فيها والرأي بين الجميع، بعد تعزيز أجواء التحاور المتبادل القائم على الانفتاح واحترام فكر الآخر ورأيه وحقه، يقوم أيضاً بالعزيمة على تشارك الخبرات والاستفادة منها وتثمينها. ومن ثم تمتين المشتركات وتقصير المسافات بين المتباعدين.. وتجنّب التصرف الفوقي المتعالي على الآخر باعتباره أدنى منزلة وشأناً، وإلا فسوف يكون التخطيط في عمل مؤسسات الدولة مبنياً على التمييز والإقصاء والظلم والتهميش؛ مما يقوّي لدى المميّز ضدهم، الإحساس بالمنقوصيّة والغبن ويفتح مجالاً للحقد والصراع وزيادة الاحتجاج، وهذا يفكك أركان المواطنة ودولتها. فلا يجوز إعلاء حق مجموعة على حساب مجموعة، أو حق مجموعة على حساب العموم. أو حق فرد على فرد لمحسوبيّة سياسيّة أو غير سياسيّة.

العقل الجمعي بتنوّعاته هو أساس التعايش لا العقل الجماعاتي.. والإنسان من حقه أن يحظى بكامل حقوقه الوطنية. اللا قبول هو منطلق العصبيّة؛ فرفض الآخر وكرهه وعدم اتباع العدل وممارسة التمييز بحقّه، حالات مرضية كارثية، ستؤسس لفكرة رفض التعايش السليم مع الآخر. لا يمكن نسخ أنفسنا في الآخرين وتذويبهم أو محوهم. الطبيعة حول الإنسان تسير على قانون التنوع والتطور وتوازنات التناغم؛ فتألف الطبيعة هذا وتألف حتى متناقضاتها، ، ،لكنّ الإنسان يفقد بصره ورؤيته بظلامية العصبية،

عندما لا يعترف بإنسانية الآخر ويساويها بإنسانيته ويصر على كراهية أو إقصاء المختلف عنه.

إنّ في الحوارات الجادة والممنهجة لتقريب العقول، وفي البحث المتواصل لإيجاد حلول وتسويات بالقسط، للتعايش هو المغزى حتى يشعر فيه الجميع برضا ولو كان رضا غير كامل. ويرتبط بالتعايش فكرة المسؤولية. حين يستطيع كل واحد أن يمارس طقوسه وشعائره ولغته في محيطه، وأن ينفتح بها على مجتمعه؛ لكنْ، عليه أن يبقى مراعياً لقوانين الدولة التي اتفق عليها المجتمع وقواه المختلفة وطوائفه وممثلوه ووفق أعرافها السياسية والأخلاقية والقانونيّة المنصوص عليها بموافقة إرادة الشعب .وأن يتواصل مع مجتمعه الواسع ويتشارك في العمل والمنجز، وفي المسؤوليات والالتزامات. أما من لا يتواءم مع متطلبات مجتمعه العليا، ويشتط في مطالبه الشخصيّة على حساب الضبط العام، لا خيار أمامه سوى الانكفاء أو الهجرة إلى مجتمع آخر. فالوطن يتطلب مواطناً يؤمن به ويدافع عنه، وعن قيمه. عن إنسانيّة أناسه. النقد وتنوّع النقد جزء من تفاعل التعايش مادام ينحاز للحرية مع المسؤولية واحترام إرادة الشعب الواعي. المواطن يريد وطناً يحميه ويرعاه، ويمنحه واقع التعايش. والوطن يريد مواطناً يدعم عملية بناء الدولة والأمة والمواطنة. إنّه عقد التعايش هو عقد بين الأنا والآخر. بين الذات والواقع.

مسألة الهوية والثقافة

العالم توجّهه ثقافة سائدة، هي ثقافة تتشارك فيها الثقافات كلها بشكل ضئيل أو ضخم. وبغض النظر عن موافقتنا لها أو نقدها، فهي جزء من واقعنا. وبين أطياف أي مجتمع متنوّع الثقافة مُشتركات سائدة. ويمكن لهذه الثقافة السائدة أن تقرّب بين الأمم وتقرّب بين المفاهيم، بعد تقويمها وتطويعها لما يناسب كل مجتمع. كما يمكن إجراء التحديث لكي تتجدّد ثقافتنا وهويتنا وتكون معاصرة. ولا مسوّغ للخوف من الآخر ومن الحداثة ومن صراع التغييرات الكثيرة، مادمنا نحافظ على جوهر هويتنا. فماذا عندما تتكوّن أمة من ثقافات هي أصلاً تتشارك جزءاً من التاريخ والمصير؟ حتماً سيكون لهذه الثقافات مشتركات كثيرة، يمكن البناء عليها للتقريب الثقافي في مشهد هوية جامعة.

عندما تتكوّن الأمم والحضارات ينبني ذلك على ائتلاف الثقافات، الذي يمكن، به، إنجاز ثقافة كبيرة عالمية. والثقافات الحيوية هي التي يتاح لها المجال واسعاً؛ لكي تكون جزءاً من ائتلاف الثقافات في الأمّة وفي العالم. لكن لا مفر من مواجهة إشكاليات الهوية. فطريق بناء المواطنة ودولتها ومشروع الأمة يمرّ بصراعات الهوية وإشكاليات الهويات الصغيرة الفرعيّة في الأمّة. إنّ قوة ثقافة الأمة يتجلّى في أن تحتفظ كل ثقافة بأصالتها، وتسهم بدورها الفاعل ولو بشكل جزئي. ولا يكون ذلك إلا بخروج الثقافات الصغيرة والكبيرة

عن عزلتها وتقوقعها وانغلاقها، وبتخلي الثقافات التاريخية الراسخة عن عصمتها التي أوقفت حركة اجتهاداتها الفكرية والأخلاقية والقانونيّة والاعتقاديّة، وأوقفت نموّها؛ فما المانع في التجديد والمراجعة وبناء حوار ثقافي جديد حداثي بمعنى التقدّم الإنساني والحقوقي والابتكاري، يمكن أن ينجز إثراءً مشتركاً؟. الاختلافات الثقافية يمكن أن تنمو وتسهم في التقدم العام. لذلك فإنّ القوالب النمطية السائدة للتفكير بحاجة إلى تدقيق وإلى مراجعة مستمرة.

الأمم، أيضاً، تموت. ليس فقط البشر. الأمم أيضاً تموت، ليس فقط عندما تتعرض للغزو والعدوان العسكري الذي يقهرها، بل عندما تفقد هويتها وروح انتمائها الثقافي الحي... وكذلك عندما يفقد الأفراد علاقتهم بالهوية. فالموتى المعنويون في الأمم أفراد فقدوا الهوية. الهوية القومية التي يندمجون بها وفيها؛ ليحيوا ويسهموا في استمرار حياة الأمة ومجدها.

بالطبع تمثّل الهوية إشكالية كبيرة في بناء المواطنة ودولتها ومشروع أمّتها، فالتاريخ الإنساني تاريخ يسيّره الصراع. والصراع تحركه الهويات المؤسسة للمجتمعات والدول. وهذه الهويات تتصارع فيما بينها، ولا يثبت داخل الأمة أو خارجها إلاالهوية القادرة على الفعل الحيوي الذي يمدّ دولتها وعالمها بالقيم ذات الطاقة المتجددة القادرة على الفعل والتأثير. والمتمكنة من احتواء الجغرافيا ومسايرة التاريخ من خلال إنشاء دولة وحضارة وسيادة.لكن يقوى الشعور

بالهوية باتساع المجتمع وتماسك جماعاته التي ينتمي إليها الفرد. لعل قضيّة اللغة من أهم القضايا الثقافيّة التي تثير صراعاً: فاللغة هي التي تكوّن الأمة فكريّاً ومعنوياً، وهي داعم القوميّة والذات. وتتصارع أكثر من لغة على استلام منصب السيادة في الدولة. وهنا تشتد الصراعات. بالطبع يمكن إتاحة تعلم عدة لغات والتحدّث بحسب القوميات، ومن حق كل قوميّة استخدام لغتها وتعلّمها والتأدب بثقافتها واستخدامها في إعلامها وتعليمها؛ لكن تبقى لغة الدولة هي اللغة الأكثر قدرة على التواصل والترقي. ويصبح لازماً على الجميع تعلّم لغة الدولة اللغة الرسمية للتواصل الرسمي بها وعبرها؛ لأنّها ستكون المجال الحيوي العام لنمو الفكر والثقافة والقيم والمعتقد، ولمواكبة التقدّم ومتطلباته، وللتجديد العلمي وتحقيق الاعتبار والقيمة الدوليّة للأمة وشعبها وقومياتها. اللغة من أهم دعائم الثقافة والهوية، وهو ما يفرض تصميم برامج تعليمية وتعلميّة تبدأ منذ الطفولة المبكّرة وتكون بروح المعاصرة والتجديد.

أمّا المعتقدات والقيم؛ فهي متنوّعة، ويمكن أن تنمو في حلف وطني اجتماعي إنساني - يسمح بحرية نمو المعتقد الذاتي والجماعاتي، بما لا يهدم معتقد الآخر ويعتدي عليه ويلغيه، وهو ما يفرض، واقعياً، إجراء البحث والعمل المستمرين لتعزيز المشتركات ورأب الصدع وتقليل المخاوف للإسهام في الفعل الثقافي والقيمي، بما ينمّي العملية الإنسانية ذاتياً وجماعياً نحو الأمن النفسي والجماعاتي،

وبما يقود إلى خير الأمة وصلاحها وإنجازها المعرفي والأخلاقي والسياسي. وهذا سيخلق أسئلة وإشكالات حول القيم ودورها في التشريع والقوانين. كيفما انتهى الأمر في العلاقة بين المعتقد والتشريع. يجب احترام خصوصية المعتقدات الأخرى في التشريع، وعدم الاستبداد التشريعي باسم هيمنة معتقد الأغلبيّة بالمعنى الصارم غير القابل للتأويل والتطوّر. التشريع قد يكون مدنياً، وقد يستمد من الدين. لكن يجب مراعاة تطور التشريع بما يلائم احتياجات الواقع والفرد والمجتمع، وبما لا يخل بروح المعتقد المقدّس لدى الكثيرين. المهم في هذه النقطة أن المعتقد يمكن أن يحمل طاقة أخلاقية عالية، خصوصاً إذا ما جرى العمل عليه بالتهذيب والتنقية من شوائب الأنا المحضة الطاغية بسمو القيم والجمال.

ولأنّ منظومة المفاهيم قد تكون متقاربة أو متشابهة في عمومها، فيصبح تقريبها للتعايش والإبداع المشترك أمراً ليس صعباً ضمن منهجية علمية مدروسة تأخذ بعين الاعتبار، الاجتماعي والنفسي والفكري.

لكل فرد طموحاته الثقافية على المستوى المجتمعي وكذلك لكل مجموعة طموحاتها الثقافية التي تسعى لرفعها إلى المستوى المجتمعي والسيادي. ومن حراك هذه الطموحات والأهداف الثقافية في هويات صغيرة، تبدأ إشكاليات الهوية، خصوصاً، عندما تكون

مجموعات الأقليات غير ناضجة حضارياً وأقل تطوراً من غيرها، نتيجة التهميش والعزلة، ولديها إحساس بالمظلومية ؛ فإنها تتقوقع وتنتهز الفرصة لتصارع الآخر دفاعاً عن بقائها وتنبش في خرافات الماضي الوهمية والحقيقية، لكي تستعين بها كحجّة لتغذّي عصبيتها؛ فتعادي وتعتدي وتتشدد ضد الآخرين المختلفين عنها. لكن الدولة لا تستطيع استبعادها ولا إعدامها. والأمة باستبعاد الآخرين وعدم قبولهم، قد ترتكب المظالم وتزيد في المسافات والأحقاد. لذلك، الخطوة الصائبة هي المحاسبة الفرديّة وفق الجريمة، والتأكيد القانوني على العواقب، وعلى الواجبات والالتزامات، وعلى عمليّة المحاسبة المرتبطة بالحقوق.

وضع القوانين وتوخّي العدل ووجود المحاسبة يقلل الشطط، ويقلّص من تفاقم الصراعات وتزايد الشحن المضاد للأمة والدولة. فالمواطن هو إنسان. وهو إنسان مسؤول. النظر إلى الجميع بعين الإنسانية الواحدة يحقق الرضا، ويحفظ الكرامة الفردية لكل المواطنين ويساويهم في حقوقهم الإنسانيّة قبل الوطنيّة. أمّا التعصب العرقي أو المذهبي أو القومي؛ والانصياع لمثل هذه الصراعات؛ فهو مقتل دولة المواطنة. لا يجوز في مفهوم المواطنة تصنيف البشر وفق معتقدهم، ولا بقبول اصطفاء مرتبة مجموعة ودنو مرتبة الآخرين من الأغيار. أسهل الطرق لتحقير الآخر هو نزع إنسانيته من خلال قمعه بالتصنيف الدوني الثقافي أو بدونيّة الهوية العقائديّة والمناطقيّة. كل

فرد وكل جماعة تحلم بأن تكون محط سيادة. لذلك عملية بناء المواطنة هي عملية فكرية تنتهج سياسة علمية وفكريّة مدروسة لا مجرد بسط المفاهيم وفرضها بالقسر والإجبار والإسقاط.

الأمة والأقليات

المواطنة تأتي في الدولة بديلاً للعلاقات الإثنية. الانتماء إلى الأمة هو البديل. وبالمقابل لايعني ذلك إلغاء الانتماءات الفرعيّة للمكونات الموجودة في الدولة. إنّ من أشد الصراعات التي تواجهها دولة المواطنة تتمثّل في مجال الأقليّات وصراعاتها.. فالمواطنة تواجه صداماً بين عدة مفاهيم ؛ مثل العرقية والأمة. الدين والأمة. وأي تقدم في مشروع بناء المواطنة يبدأ بخطوة أساسية هي إسقاط مفهوم العنصرية، ليس فقط ضد العروق والقوميات، بل ضد الأقليات وضد الأكثريّة. وإلغاء أي شكل من أشكال العنصرية سياسياً وقانونياً، وأي تمويه عنصري تحت أي مسمى آخر. وإلغاء التمييز بين الأفراد والجماعات أمام القانون في الحقوق والواجبات. فلا أحد في مرتبة أعلى وأخر بمرتبة أنقص... ذلك يتأتى بالعمل في جميع المستويات وعلى مختلف الأصعدة لتمكين المواطنة وتمكين الأمة، وحتى يكون بين هذه المفاهيم تناغم وصلة وتشارك. يمكن أن تقوم دولة و(أمة) من عروق ومذاهب وإثنيات متعدّدة.

الأمة لا تعني بالمعنى الصارم عرقاً. ولا تعني كذلك مذهباً. الأمة تضم مجموعة ثقافات وعروق ومذاهب، لكنّها إطار تنظيمي سياسي

يحمل لون الهوية الأكثر ثراء وقوة وحيوية. أما عندما تحمل بالقسر لون عرقٍ فرعي، أو مذهب غير قابل للنمو والتطور اجتماعياً؛ فإنها تنهار. لذلك عملية ترسيخ مفهوم المواطنة وبناء دولة المواطنة يتطلب من الجميع مراجعة أهدافهم وأفكارهم وخط سيرهم لوقف الاستنزاف في نار الصراع بين الأقلية والأمة، ومن ثم تنشئة الواقع وفق هدف المصير المشترك.

الأمم تقاتلت طائفياً ومذهبياً وقومياً قبل أن تؤسس دولها وتنهض بها. لكنْ، لا مجال لأن تقوم جماعة بتطهير أو إبادة من دون أن يؤدي ذلك إلى ردة فعل قاسية واستهجان أخلاقي وسياسي، وبالتوازي مع ذلك، لا يمكن ممارسة إبعاد جماعي لجماعة أو إبادة. توخياً للنقاء القومي أو الديني أو العرقي، أو ممارسة العقاب الجماعي بدافع الثأر والقصاص من أخطاء ارتكبتها الجماعة. هذا غير قابل للاستمرار واقعياً وسياسياً حالياً. فالأرض ليست حكراً على أقليّة أو مجموعة، ولا أحد بمعزول عن العالم. التاريخ الجغرافي السياسي مجال حراك إنساني واسع ومتنوّع. الآن يستطيع الجميع أن يعيش ويمارس طقوسه وأعرافه وتقاليده في دولة المواطنة التي لا تقوم على عشيرة أو مذهب أو عرق، بحريّة معياريّة بعيداً عن التحكم المركزي بما يحقق حرية لكل فئة ضمن المجال العام. إنّه الاتزان المجتمعي..ولا يتحقق إلا بخلق برامج التوفيق المجتمعي والاجتماعي لتفادي الاعتداء والصراع وتحاشي النزاع وتلافي الخصومة.

أما عندما يعمل أحد ما، أو فريق أو جماعة على إلغاء هويات الآخرين وتحقيرها أو نبذها أو إقصائها، أو عندما يعمل الآخرون الشيء نفسه بهوية الواحد، فلن تنشأ أمة ووطن ومواطنة ودولة مواطنة. ستنشأ عصابات وشلل وكيانات منقوصة تتقاتل وتتنازع السلطة ومكاسبها.

الدولة التي تستغل المنظومة الدينية أو القومية لمصلحة فئة أو جماعة، ليست بدولة المواطنة. وتفقد مصداقيتها وشرعيتها كدولة ديمقراطية؛ فهي دولة الأقليّة. وبالمقابل، أيضاً؛ فاحترام المواطنة في الدولة يفرض عدم تفكيك أي دين أو مذهب أو قومية ومعاداة المعتقد بحجة الحداثة والعلمانيّة وعرقلة بناء الدولة؛ فهذا تحقير للفرد في ذلك المذهب أو بتلك القومية أو في نهجه الديني، وهو تمييز وظلم وقمع حريات.

لا تقتصر المواطنة على مذهب أو عرق أو قومية. تتسع للأخوة الدينية والمذهبية والقومية؛ فالروابط التي تنشئها الدولة بصون حقوق الجميع، لها دورها في تعزيز الأخوّة الوطنية والإنسانيّة وتؤسس لروابط أخلاقية تعزز بناء إنسان صالح ومواطن صالح.

إذن المواطنة فعل ثقافي وفكري وتحديثي ومجتمعي، وليس مجرد مصطلح سياسي؛ هي عقد يعمل الجميع على إنجاحه للصالح العام ولنمو العقل، بغض النظر عن الأصل والدين والمعتقد. ففي الفصل بين الفضاء العام الرسمي والحيز الخاص الذاتي، تكمن قوة

إبداع الفرد والمجتمع. أما موضوع أن تملك الدولة والمجتمع أداة الدين والمعتقد والحزب، وتمارسه كأسلوب قسري فرضي وتفتيشي ؛ فهو أمر لا علاقة له بالمواطنة، وسيئ جداً إنسانياً ونفسياً، سيؤدي إلى تهديم الحرية الشخصية والكرامة الفرديّة، وسقوط المجتمع في النفاق والتظاهر والخداع والفساد.

الدولة

المواطن عضو في شركة اسمها الدولة أسسها الشعب لتنظيم حياته. حيث الحريات الفردية مصونة، المسؤليات العامة مطلوبة من الفرد...الدولة ليست سيداً والمواطن ليس عبداً لها أو خادماً... الوطن ليس للقهر والإخضاع تحت شعار الوطن أولاً، أو شعار الوطن ثانياً بعد الله . أو تحت شعار لحزب وعقيدة، أو استبداد مبدأ. الإنسان هو الأساس، وهو كلمة الخليقة...ومن أجل الإنسان والمجتمع الإنساني جاء الوطن وجاءت الدول لتنظيم هذا المجتمع الإنساني... وبغير ذلك، عبودية واستعباد وقهر...وشرطة سياسية واجتماعية للترهيب والتخويف. وشرطة فكرية قمعية تنوب عن الشرطة السياسية ...

أحد اشكال مناقضة المواطنة هو الحكم الأيديولوجي الشمولي.. فأي حكم أيديولوجي ديني أو قومي أو حزبي شمولي هو حكم إقصائي وتسييسي غير إنساني. الحكم حين يكون لمصلحة شخص أو فئة أو جماعة يفسد ويتحول للطغيان. الحكم في دولة المواطنة يأتي بالانتخابات وبالديمقراطيّة.وبوجود معارضة وموافقة.

الدولة مهمتها تنظيم العمليّة السياسية الخارجيّة والداخليّة وتنظيم العملية المجتمعيّة وصون حقوق الإنسان وحرياته وضمانها وضمان أمنه الداخلي والخارجي. ليس الوطن كدولة فوق الجميع. الوطن طرف في علاقة. وإلا فسوف تصبح الدولة إلهاً ووحياً ربانياً، تتحوّل إلى طاغية على الأرض.

تنظيم العيش المشترك الذي يشكل اللبنة الأولى لبناء المجتمع الإنساني يحتاج لسلطة. وهذه السلطة مهمتها تنظيم عموم العمل المؤسساتي، وليس الاستيلاء على أقدار المواطنين ومصائرهم وذواتهم وأقدارهم الشخصية وأديانهم، التي لا تهدد أمن الآخر وأمن المجتمع، كذلك ليس من صفاتها انفرادها بالحكم وتحكمها بالشعب وقهره وقهر الرأي، والاستبداد به، والهيمنة على حركته ومصيره وحقوقه وحريته. مهمتها أن تقيم السلم والأمن، وأن تحقق مصالح الناس بالتوازن والتوفيق بين المختلف عليه وبين المصالح المتضاربة؛ حتى لا يحصل الظلم والاعتداء والطغيان والتقاتل والنزاع المهدد للسلم الأهلي والمجتمعي والاجتماعي.

في دولة المواطنة تتحقق السيادة للمواطن والشعب، فلا تطغى السلطة والدولة عليهم وليست فوقهم..يجب أن تسود فيها قوة المنابر الحقوقية والإعلامية ومنظمات المجتمع المدني والأحزاب لمراقبة عمل الحكومة بما يخدم المواطن وبما لا يخالف القوانين. فالمواطن جزء من شركة كبيرة اسمها الدولة. المراقبة ليست فقط من السلطة للشعب

حفاظاً على الشأن العام. بل أيضاً من الشعب للسلطة حفاظاً على حقوقه من طغيان الدولة وفسادها ونهبها مؤطراً بشرعية القانون والدستور اللذين وضعهما الشعب بمحض إرادته..

يبدأ المواطن بتجسيد مواطنته منذ إنجاز عمليّة التحرر الوطني من تبعية الاحتلال أو الطغيان. ومن هنا؛ فوجود المعارضة أمر جوهري يحمي من الدكتاتوريّة؛ لأن المعارضة ستقوم بملاحقة الخلل وممارسة النقد المضاد. المعارضة أمر صحي مادام عملها يحترم اللعبة الديمقراطية ولا يهدّم النظام الذي تم تأسيسه بلعبة ديمقراطيّة.ولا يمثّل مشاريع خارجية تهدف إلى تقويض الأمن والاستقرار والنظام العام.

خاتمة

لا تتحرر المواطنة من مثالية التنظير، والشعارات الطوباوية والمتحايلة، إلا بالعمل، انطلاقاً من الإيمان الناضج بها، ثم بالعمل الواقعي على تطبيقها وتذليل الصعوبات والعقبات، وممارسة الاندماج عبر طقوس اجتماعية وثقافية ومجتمعية وسياسية مدروسة، بعمق وسعة؛ للتغلّب على العنصريّة والتمييز والصراع بين المكونات والجماعات، والعمل على إنماء الشعور الجماعي المجتمعي وترقية مفاهيم المواطنة. ويبدأ ذلك حتماً بإزاحة أسباب الحقد واللاقبول التي بناها ورسّخها تاريخ معيش من العصبية والصراع والإقصاء للآخر، حتى ممارسة الإبادة أو التطهير تحت اسم تماسك الوطن وحماية

المواطن.والعمل على إزاحة الحقد والضغائن،. لكن قبل ذلك كله، لابد من البدء بتنفيذ المحاسبة اللازمة لكل المتورّطين في الحروب العنصريّة والأهليّة، وإعطاء المجتمع المتضرر تعويضاً لما حصل نتيجة الأضرار الفادحة. ومن ثم الجديّة في محاسبة الذين يخلّون بالأمن الداخلي المجتمعي والإنساني وبتناغم دو لة المواطنة، إعلامياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً بمنظور القوانين والأدوات القانونية.

أما التشدق بمصطلح المواطنة والنقيق به، والقول بتسامح القوي مع الضعيف، فهو تكريس للهيمنة والاستغلال...وتكريس لغلبة فئة على فئة وتسويغ إخضاع. لكن بالتعايش وفق العدل والاحترام المتبادل وتكافؤ الفرص في ظل القانون والحقوق والواجبات والمساءلة والحساب. إنّه تسامح الإنسان مع نفسه وخلاصه من عصبويته باندماجه الإنساني في مجتمعه المدني المتنوّع.

الاختلاف ضروري والتنوّع جوهر الحياة. وقد يكون في الاختلاف ثراء وغنى للتطور، وفي التنوّع حافز للإبداع، ولعل في التنافس بين المختلفين يحمل الابتكار والإنجاز ونمو الرأي والفلسفة، وإعادة النقد البنّاء للجعبة الثقافية والأخلاقيّة ...

ضدّ الطّائفيّة

أ. مادونا عسكر (لبنان)

كاتبة وصحفية

ما أسهل أن تتسرّبَ إلى قوم ينهشهم الفكر الطّائفيّ، وتعشّش فيهم الذّهنيّة الطّائفيّة والقبليّة. وما أيسر أن تحرّك شعباً وتبرمج عقله وردّات فعله، في حال كان قد تربّى على أنّ الطّائفة تحدّد قيمته الإنسانيّة. فالذّهنيّة الطّائفيّة المنبثقة من الذّهنيّة القبليّة المتقوقعة والمنغلقة على ذاتها، إذا ما استحكمت بالفكر الإنساني والرّوح الإنسانيّة، غدّت في ذات الإنسان الخوف من التّحرّر من المذهب والطّائفة، وسجنته في دائرة الانغلاق العقليّ والفكريّ، فيصبح رهينة فكرها وقرارها.

قد يعتقد غالب النّاس أنّ التّخلّي عن الطّائفة أو عن الفكر الطّائفي هو التّخلّي عن الدّين أو الإيمان، وبذلك يكون قد اعترف من حيث لا يدري أنّه لا يفقه جيّداً هدف الدّين ورسالته الإنسانيّة، بل يعبّر عن إيمان هشّ وغير واعٍ، يرتكز على شعارات متوارثة ونظريّات متناقلة دون وعي كافٍ لإدراك مغزاها العميق والّذي من المفترض أن يواكب الإنسان في مسيرته الحياتيّة. كما أنّه يحفظ صمّاً كلمات ويردّدها متنازلاً عن البحث الجدّيّ والعميق في معانيها المتجدّدة.

من هنا وجب تحديد الفرق بين الدّين والطّائفة، وبالتّالي بين العقيدة الدّينيّة والمفاهيم الطّائفيّة الّتي تبلورت عبر السّنين، وقد يكون جوهرها واحداً واختلافها ظاهريّاً من خلال الممارسات والطّقوس، كما قد يكون الاختلاف في الجوهر والظّاهر معاً.

الدّين هو منظومة اجتماعيّة تشكّلت بحسب خبرة الإنسان في اكتشافه للّه خلال مسيرته الإنسانيّة. وبغض النّظر عن مفهوم اللّه في كلّ ديانة وبغض النّظر عن كون الدّين رسالة منزلة أو صياغة بشريّة إلهيّة بمعنى أنّ اللّه والإنسان معاً خطّا هذه الرّسالة، لا بدّ من إجماع على أنّ الدّين رسالة إنسانيّة تحمل الكثير من القيم الإنسانيّة والسّماويّة، كما أنّها في خدمة الإنسان لتساعده على بلوغ نموّه الإنسانيّ الكامل، على المستوى الجسديّ والرّوحيّ والنّفسيّ.

أمّا الطّائفة فليست أصيلة في هذه الرّسالة، وإنّما دخيلة عليها، نتيجة للصّراعات الشّخصيّة والبعيدة كلّ البعد عن الأسس الدّينيّة، كما أنّها نتيجة للتّجاذبات على السّلطة والتّحكّم بالرّأي والاستفراد بفهم القيم الدّينيّة، واحتكار الحقّ.

إن عدنا إلى تاريخ الانشقاقات داخل الأديان فسوف يتجلّى لنا بوضوح أنّ الاختلافات اللّفظيّة أو الفهميّة، وبالتّالي احتكار الشّرح للنّصوص الدّينيّة، كذلك استخدام الدّين لمآرب شخصيّة، أدّت إلى نشأة الطّوائف الّتي يمكن اعتبارها أيضاً حصيلة انغلاق جماعة على نفسها داخل الدّين الواحد لإثبات وجودها الفكريّ، وفرض نفسها

كمصدر أوّل ووحيد للعقيدة الجوهريّة. إلا أنّ هذه الصّراعات والنّزاعات أدّت إلى اقتتال داخل الدّين الواحد، وسبّبت قطيعة لسنين عديدة بين أبناء الإيمان الواحد. وبالتّالي خلقت تحزّبات واصطفافات أساءت إلى جوهر الأديان، بل أساءت إلى اللّه نفسه. فعندما يستخدم الإنسان إيمانه ودينه كسلاح ضدّ أخيه الإنسان، ويستبيح لنفسه تكفيره أو الدّعوة لقتله، فهو من حيث يدري أو لا يدري يهين اللّه.

ولمّا كانت الاصطفافات والتّحزّبات تحفّز التّحجّر الفكريّ، وتقلّص من قدرة العقل على الانفتاح وتقبّل الآخر، ولمّا كانت الصّراعات توقد نار الحقد والكره، فلا بدّ من حدوث انشطار في هيكليّة الدّين، ممّا يفقده قيمته الجوهريّة ومعنى رسالته السّامية الّتي هي التّحاب والإخاء وبناء علاقة أفقيّة عموديّة، بين اللّه والإنسان.

ولمّا كان أبناء الدّين الواحد يشكّلون جسماً إيمانيّاً واحداً، فلا بدّ من أنّ هذا النّزاع والقتال شطر هذا الجسم لعدّة أقسام. ومن هنا نرى تعدّد الطّوائف وتشعّبها. ولأنّ الطّائفة أتت نتيجة لأزمة، فبالتّالي سيؤدّي الالتزام بها إلى تعصّب وتشدّد فكريّ غير متسامح وبعيد كلّ البعد عن الإيمان الحقيقيّ، الّذي هو علاقة أفقيّة عموديّة مع اللّه والإنسان.

إنّ التّفكير الطّائفيّ ليس مرتبطاً بالإيمان وإنّما بصراع البقاء للأقوى، والحجّة المستخدمة هي الإيمان. فالإيمان الحرّ والواعي لا يدخل هذا الصّراع ولا يرتبط به، بل هو مرتبط بالفكر الحرّ الّذي لا

يخاف من الزّوال وذلك لقدرته على استيعاب أيّ فكر سواء اقتنع به أم لا. كما أنّه يعي أنّ إيمانه يعنيه وحده بمعنى أنّه غير مسموح له أن يفرضه على الآخر.

الفكر الطّائفيّ، لا يتغذّى وينمو بذاته، وإنّما توجد عدّة عناصر وعوامل تساهم في تغذيته بل في تسريبه كالسّم في جسم الإنسان. وبالتّالي هذا السّم المعنوي يسهم في امّحاء العقل فيمنعه من التّطوّر ويحدّه ضمن منهج عنصريّ وتعصّبي، كما أنّه يجعله منقاداً إلى قائد أعلى يوجّهه كما يشاء ويبرمجه وفق مصالحه ومآربه. كما أنّه يدفع الإنسان أن يسلك بردّات فعل غرائزيّة، لا يقضي بها العقل ولا تديرها الحكمة.

بالمقابل يقلّص الفكر الطّائفي من قدرة القلب على المحبّة فيعزّز النّقمة والحقد، فلا يمكّن الإنسان من تخطّي الماضي المضطرب للانفتاح على المستقبل.

ثمة عناصر أساسيّة تغذّي الذّهنيّة الطّائفيّة:

١- رجال الدّين:

مع كل الاحترام لما يمثّله رجل الدّين، ولسنا بصدد التّعميم وإنّما تخصيص رجال الدّين الّذين يشكّلون العامل الأساس والأوّل في تغذية الذّهنيّة الطّائفية. ولنعترف بسيطرتهم على بعض العقول وإثارة الغرائز واستفزاز النّاس.

ولعلّ دور رجل الدّين في هذا الصّدد هو الأخطر إذ إنّه يتحدّث باسم اللّه ثمّ يحثّ النّاس على الدّفاع عن اللّه. دور رجل الدّين، هو خدمة النّاس روحيّاً ليساعدهم على الارتقاء والسّموّ بقيم وفضائل إنسانيّة، وليس دوره تحريض النّاس على الاقتتال، أيّاً كانت الأسباب.

وإن كان دوره يقتصر على التّربية الدّينيّة وحسب، فالأولى أن يربّي على المحبّة والتّآخي. وإن صدر خطأ ما من طرف ما فليستخدم الحكمة والعقل ليجمع وليس ليبدّد. ونرى بعض رجال الدّين يشحنون النّاس ويطرحون مفاهيمهم بعنف ويفرضون أنفسهم كقادة ومناضلين مدافعين عن الحقّ. ويحصرون الدّين في الطّائفة، ويختزلون المفاهيم الدّينيّة في وجهة نظرهم، ويلقّنونها للنّاس على أنّها الإيمان الحقّ، وكلّ ما سوى ذلك ضلال وتضليل.

إنّ التّمسّك بالدّين وأصوله لا يعني التّشدّد والتّعصّب، والالتزام الدّينيّ لا يفترض التّعجرف واعتبار الآخر والمختلف درجة ثانية، أو حتّى ممنوعاً عليه التّعبير عن مفاهيمه.

إذا كانت نشأة الطّوائف نتيجة لأزمة، فلنحوّلها إلى عامل إيجابيّ ولنجعلها عائلة صغيرة ضمن العائلة الكبيرة. وليحافظ كلّ فرد على مفاهيمه وعقائده دون السّعي لمنع الآخر من حقّه في استيعاب الدّين وفق نموه الفكري. فالإيمان ليس محصوراً بالدّين لأنّ الإيمان علاقة شخصيّة وخاصّة مع اللّه وأمّا الدّين فهو وسيلة وسبيل.

ليست المشكلة في الدّين بل المشكلة في احتسابه يشكّل قيمة للإنسان، كما أنّه ليست المشكلة في الطّائفة المنبثقة عن الدّين بل تكمن المشكلة في ما ينتج عن التّمسّك الأعمى بها والتّحجّر العقليّ والفكريّ الّذي يحدّد الإنسان في جهل مقيت.

الدّين ليس تجارة لكي يستخدمها رجل الدّين بما يتناسب ومصالحه ومصالح من ينتمي إليهم. وليس الدّين سجناً نعتقل فيه النّاس ونسوقهم باتّجاه واحد بحجّة الحقّ. كما أنّه لا يجوز استخدام الدّين كدعاية لنصل إلى الحكم ونفرض ما نسمّيه الحقّ على الآخر ونفرز النّاس بين مؤمنين وغير مؤمنين.

بالمقابل، إنّ رجل الدّين ليس إلهاً، ويخضع للنّقص والضّعف البشريّ، وبالتّالي لا بدّ من مناقشته إذا ما عبّر عن فكر ملتبس. ولا بدّ أن نردعه في حال أساء للمفاهيم الإنسانيّة. ولا يجوز الانسياق خلفه لمجرّد أنّه رجل دين، فلا بدّ أنّه يخطئ في مكان ما، ولا بدّ أنّه يبحث عن الحقيقة كأي إنسان آخر. بالمقابل، وإذا كان رجل الدّين يعتبر نفسه قائداً روحيّاً أو مرشداً روحيّاً وجب عليه أن يلتزم بالقيم الأخلاقية الّتي أهمّها يتجلّى في نقاء الضّمير، كي لا يجنح إلى السّكوت عن الحقّ من أجل الحفاظ على المصلحة الشّخصيّة.

إنّ نقاء الضّمير يدفع الإنسان إلى وزن الأمور والاعتراض على ما يسيء إلى الكرامة الإنسانيّة، فيشجب كلّ استهانة بحقّ الإنسان وكرامته. كما يجعله ملتزماً باحترام أيّ إنسان وإلى أي جماعة

انتمى، فرجل الدّين وإن كان على رأس جماعة تخصّه، إلا أنّه يقع على عاتقه عامل التّربية الرّوحيّة الّتي تؤسّس لعيش الشّركة مع الآخر، بغض النّظر عن انتمائه. فاليوم للأسف، فقد غالبية رجال الدّين ما نسمّيه اعتراض الضّمير، ولا نرى كثيرين منهم يتصرّفون بشجاعة وانفتاح وإنّما يزيدون من انغلاقهم ويرفعون وتيرة التّحريض، ولا يحرّكون ساكناً أمام المجازر الّتي تحصل بحقّ الإنسان. عندما يفقد رجل الدّين اعتراض الضّمير، يفقد معه حسّ المسؤوليّة تجاه دينه وجماعته. فمن يسكت عن الحقّ هو شخص غير موثوق به، فكيف له أن يقود جماعة ويرعاها، ويبيّن لها الحقّ من الباطل.

٢- الإعلام الطّائفي:

إذا كان الإعلام بوسائله المرئيّة والمسموعة والمقروءة يشكّل سلطة رابعة، فوجب على هذه السّلطة أن تكون في خدمة الفكر الإنسانيّ، وليس في خدمة الطّوائف. ففي حين أنّه أصبح لكلّ طائفة قنوات وإذاعات وصحف، وكلّ منها يعبّر عن مفاهيمه إلا أنّ قلّة فقط تطرح تلك المفاهيم برقيّ إنسانيّ، أمّا الغالبيّة فتبحث عن ثغرات بعضها البعض وتحطّ من قدر الآخر. كما أنّ الإعلام يطرح مواضيعه السّياسيّة والإخباريّة بشكل طائفيّ وعنصري، ممّا يثير غرائز النّاس ويدفعهم للحقد على بعضهم البعض، وهم في الأصل يمكنهم أن يتعايشوا. ناهيك عن أنّه بذلك يخدم مصالح أفراد كُلّفوا ببثّ الفتنة، ويستفيدون منها ليحقّقوا مكاسب شخصيّة ولا علاقة لهم لا بنشر المفاهيم الأصيلة ولا بطرح المفاهيم الإنسانيّة.

ما لم يكن هدف الإعلام نمو الإنسان فكريّاً ونفسيّاً وروحيّاً، فلا حاجة له. وإن وُجد فليكونَ وسيلة تعبير راقية عن الرّأي والرأي الآخر، وليس ليكون سلاحاً مدمّراً للفكر الإنسانيّ. إنّ الإعلام يبثّ النّعرات الطّائفيّة وتغذية الذّهنيّة الطّائفيّة، التي تسهم في تعطيل الفرد عن تفعيل إبداعه وتدفنه في مقابر النّزاعات والصّراعات الّتي لا هدف لها. فهذا الكم من الأشخاص المتسمّرين أمام شاشات التّلفزة أو على صفحات التّواصل الاجتماعيّ فقط ليجادلوا بعضهم البعض أو ليردّوا على بعضهم البعض بمستوى أقلّ ما يقال فيه مقيت وكريه، دون أي مبادرة للمصالحة أو للتّلاقي على أهداف بنّاءة، أو للبحث الجدّيّ في حلّ أزمة ما، يسهمون في انحدار الفكر واتّزان النّفس وتلاشي قوّة الرّوح. وطالما أنّ الجدال محصور بالتّناحر والشّتائم فهذا لا يعبّر إلا عن انحطاط فكريّ وأخلاقيّ، كما أنّه يعبّر عن التزام هشّ بالدّفاع عن الطّائفة والدّين لمجرّد الانتماء إليه، كما يعبّر عن إيمان فارغ وغير يقينيّ، لأنّه ما من إيمان حقيقيّ بالله إلا من خلال احترام الذّات أوّلاً واحترام الآخر ثانياً.

إنّ هذا الإعلام الموجّه والّذي عماده الإعلان وجذب أكبر عدد من المشاهدين أو القرّاء أو المستمعين، ليس سوى مستودعٍ لبيع كرامة الإنسان وفكر الإنسان مقابل مبالغ طائلة. فيستحيل الإنسان آلة يمكن تحريكها وتوجيهها بما يناسب السّياسات والمصالح. وأخطر ما يفعله الإعلام اليوم والّذي هو بمثابة جريمة بحقّ الإنسان

والإنسانيّة، مشاركته في تعزيز الضّغينة والحقد فيكون سلاحاً فعّالاً لتدمير ما تبقى من الإنسان.

٣- الطّائفيّة السّياسيّة:

عندما يختلط الدّين بالسّياسة ويصبح في صراع سياسيّ على السّلطة وكسب المناصب وعندما ينحدر مستوى الدّين من مستوى الرّسالة الإنسانيّة إلى مستوى الدّعايات الانتخابيّة والمساجلات السّياسيّة، يتحوّل إلى سلاح في أيادي السّياسيّين يستخدمونه في سبيل حشد المناصرين وبثّ روح الخوف من الآخر، ويوهمونهم بأنّه عدوّهم. وبالتّالي سيشعرون بأنّهم مغبونون ومظلومون فيتحضّرون نفسيّاً ومعنويّاً للتصدّي لهذا الخطر. يسوق هذا التّصدّي السّياسيّ الجالس في بيته أو في مكتبه يدير عمليّة التّحريض، ويترك أرض المعركة للأفراد، يتقاتلون ويتناحرون ويتنازعون على ما لا يفهمون ولا يعلمون، بحجّة الدّفاع عن حقوق الدّين والطّائفة. وهو يعي تماماً مدى تأثير خطابه الطّائفي على إثارة الضّغينة، ويدرك جيّداً أنّه كلّما ازدادت لهجته التّحريضيّة، تمكّن من السّيطرة على جماعته.

الطّائفية السّياسية هي احتكار الحقّ الطّائفي في سبيل المنصب والسّلطة لا أكثر ولا أقلّ. ولا تنمو الدّول وتتطوّر عندما تحفظ حقّ الإنسان بحسب طائفته وإنّما بحسب كفاءته وقدرته على العطاء وخدمة المجتمع. ولا يُقيَّمُ الإنسان بحسب دينه أو طائفته وإنّما الإنسان قيمة بحدّ ذاته بغضّ النّظر عن دينه أو انتمائه أو عقيدته. السّياسيّون

المُنَصّبون للدّفاع عن الأديان والطّوائف هم أبعد ما يكونون عن المفاهيم الأخلاقيّة والإنسانيّة، لأنّهم وبتحريضهم المقيت يدعون أبناء المجتمع الواحد والإخوة في المواطنيّة إلى الاقتتال والتّناحر. إمّا أن يحمل السّياسيّ همّ الوطن بجميع أفراده وإمّا فلنتخلَّ عنه ولتكن الثّورة عليه أوّلاً، لأنّه هو أوّل من يودي بالمجتمع إلى الهلاك.

السّياسة ليست كما يعرفها الجميع زعامة أو وراثة أو إقطاعاً أو مناصب وهي ليست محصورة لا بأحزاب ولا جمعيات ولا مؤسّسات. إنّ السّياسة بمفهومها الحقيقيّ والمغيّب هي إدارة شؤون الدّولة والوطن والمواطن. وأمّا اليوم فبات مفهوم السّياسة بعيداً كلّ البعد عن مفهوم السّياسة الرّاقي. إذ بات مفهومها، اللّعبة الأساسيّة للسّيطرة على الشّعوب، وتسييرهم وفق مصالح معيّنة وأهداف خاصة تحكمها السّلطة ويستأثر بها المال. والسّياسة، إن على المستوى العالمي أو المحلّي، فقدت قيمتها كخدمة للشعوب وباتت خططاً تحاك بعنايةٍ ودقّة وحرص لفرض سياسات عالميّة على الشّعوب من خلال منظّمات سرّيّة أو علنيّة، تهدف إلى السّيطرة المحكمة على كلّ ما لا يتوافق وأهدافها الإستراتيجية، والسّياسيّة، والماليّة. وما نشهده اليوم في مجتمعاتنا العربيّة خير دليل على أنّ السّياسات العالميّة هي الّتي تقودنا ونُساقُ خلفها، إمّا عن جهل وإمّا عن قناعة، وإمّا عن مصلحة وهذا الأخطر.

٤- اعتبار الأقليّات مواطنين درجة ثانية:

الأقليّة هي جماعة تربطها أواصر اللّغة والدّين والقرابة، وتعيش وسط شعب يفوقها عدداً، إلا أن هذا لا يعني تجريدها من مواطنيّتها ومن حقّها في الأرض الّتي تعيش فيها. كما أنّه لا يعني استغلالها في سبيل الحصول على مراكز ومناصب سياسيّة بحجّة الحماية من الآخر. ولطالما كانت الأقليّات في مجتمعنا العربي مهدورة الحقوق، ومضّطهدة مع عدم السّماح لها بممارسة حرّيّتها الدّينيّة والفكريّة إلا في بعض الدّول العربيّة. واليوم تشهد هذه الأقليّات اضطّهاداً عنيفاً من جماعات تعدّ نفسها أكثريّة بل مجموعة لصوص ومرتزقة أوكلوا بنهب وتشريد وقتل هذه الأقليّات، لمجرّد أنّها أقليّات. مع العلم أنّ هذه الأقليّات لها مساهمة مباشرة في بناء الوطن من حيث التّعليم والصّناعة والتّجارة والزّراعة، ولها حقّ كأيّ مواطن في أن تمارس حرّيّتها الشّخصيّة طالما أنّها لا تؤثّر سلبيّاً على السّلم الأهليّ والعلاقات بين المواطنين. ولماذا تعتبر أقليّات، ولا تحمل صفة المواطنيّة؟ إلا أنّنا في مجتمعات ترتكز على الفكر العنصري والطّائفي كيما تبقى متحكّمة برقاب النّاس.

السّياسة الطّائفيّة والمذهبيّة الّتي تزيد من تعالي الأكثريّة واحتقارها للأقليّة، تغذّي منطق التّفرقة، وتخلق في النّفوس مساحة للحقد والنّبذ والخوف، وتحضّر أجيالاً حاقدة. وهذه الأجيال، إمّا يتمّ استخدامها في الحروب بحجّة المطالبة بالحقوق، أو بحجّة الدّفاع عن

النّفس، أو يتمّ طردها ونهبها وتشريدها وقتلها بحجّة التّكفير. وبذلك تبسط السّياسات نفوذها وتحقّق مرادها.

يجب إلغاء كلمة "**أقليّة**" من قاموس الوطن والمواطنيّة، والالتزام بكفاءة الإنسان وقيمته الفكريّة والإبداعيّة، واعتباره فرداً يساهم في بناء الجماعة والوطن. ولكن طالما أنّنا تعيش في ظلّ دول طائفيّة لن نتمكّن من بلوغ هذا الهدف، وأقليّة اليوم ربما تصير أكثريّة الغد، ويستمرّ القتال وتستمرّ النّزاعات.

الذّهنيّة الطائفيّة داء خطير ينتشر كالسّرطان في خلايا مجتمعاتنا وكي نتخلّص من هذا المرض وكي نشفى منه علينا بحرقه وكيّه، ولنخلق فكراً جديداً وإنسانيّاً بحتاً. ليحافظ كلّ منّا على مفاهيمه وليفصلها عن حبّ الوطن، فالأوطان لا تبنى بذهنيات قبليّة بل باحترام حقّ الفرد وحرّيّته، وبتفعيل قدراته وإبداعاته. ونردّد مع جبران خليل جبران: "الويل لأمّة كثرت فيها طوائفها وقلّ فيها الدّين". بل الويل لأمّة استخدمت دينها في سبيل اقتتال أبناء الوطن الواحد.

مكونـات الشعب السوري

والمكون العلوي بالذات

أ. محمد السيد (سورية)

كاتب وعضو رابطة أدباء الشام

أولاً: محددات:

إن مفهوم الأقلية في المعجم الوسيط يعني: الأقلية خلاف الأكثرية وجمعها أقليات وفي معجم اللغة العربية المعاصرة: أقلية (مفرد): مصدر صناعي من أقل: قلّ عددهم عن غيرهم، عكسها: أكثرية، فالأقلية جماعة تتميز بدينها أو عرقها أو لونها، تعيش في مجتمع يفوقها عدداً، ويخالفها خصائص ومميزات.

ثانياً: إثارة الموضوع الآن، لماذا..؟

كان الغربيون (أمريكا وأوروبا) يثيرون موضوع الأقليات وحمايتهم في وجه دول وشعوب منطقتنا، متخذين من ذلك ذريعة للتدخل في شؤون المنطقة، وعلى حسب طريقتهم هذه أخذوا يطلقون هذا الموضوع في وجه الثورة السورية على النظام المستبد، وذلك كي تتاح لهم الفرصة للقيام بمداخلاتهم الشريرة في الشأن السوري، إذ يهدفون من ذلك هدفين؛ الأول: مساعدة منهم للنظام الحاكم في

سورية، ليسترد أنفاسه، ولإعطائه الفرص لعله يعيد سيطرته على الأوضاع في سورية، متخفين خلف مصطلح (أصدقاء سورية)، والثاني: إحباط آمال وأهداف الشعب السوري، وقد استخدم حكام سورية منذ خمسة عقود فتنة الأقليات، واللعب على هذه القضية والقضية الطائفية. وقد أثاروها بكثافة في وجه الثورة السورية، ليكسبوا بها طرفين الأقليات نفسها والقوى الغربية، بما أنه يقوم بمقاتلة من يدعي أنهم إرهابيون.

وهكذا فإن جميع الأطراف اتخذت من تلك الفتنة تسويغاً لمداخلاتهم المشبوهة بأهداف وأبعاد سياسية واقتصادية وأمنية وهيمنية، غير آبهين بالدماء ولا بالدمار والتشريد لشعب سورية على يد النظام السوري، بدعم من إيران وروسيا، وابتهاج ومشاركة من إسرائيل في المؤامرة ومشاركة من بعض العرب الذين خافوا من لحاق بلدانهم بالربيع العربي.

ثالثاً: تعريفات:

١ ـ الأقليات: الإسلام دين ومدنية وحضارة، والأمة الإسلامية التي حملت هذا الدين وخيره للعالم، قدمت الكثير من هذا الخير للبشرية والإنسانية.

وإن مصطلحات كثيرة وردت في عصرنا الذي نحن فيه، لكنها مفاهيم كانت وما زالت تعمل في مجتمعات المسلمين منذ القدم بصيغها الإيجابية، ولو لم تذكر في التاريخ بالمصطلحات العصرية، مما يدل على أننا أمة الحضارة الأصلية، وليست المستوردة.

إن أيادي الأمة على الإنسانية كثيرة وكبيرة، لا يستطيع إنكارها إلا جاحد متعصب، ونضرب على ذلك أمثلة وليس حصراً لها: فأهم مثل على ما قدمته أمة الإسلام للإنسانية هو ما يتعلق بالأقليات، وأنقل هنا توثيقاً لتعامل أمتنا مع:

١- الأقليات تقدمة منها للإنسان في هذا العالم، كلام الدكتور محمد عمارة، إذ قال: " كان احترام المسلمين لكل مقدسات أصحاب المقدسات الدينية منذ اللحظة الأولى للقاء الإسلام بأهل البلاد التي فتحت وطيلة تاريخ الإسلام، بل إن هذه القاعدة الإسلامية قد طبقها المسلمون مع أهل الديانات الوضعية، ومع مقدساتهم، من المجوس والبوذيين والصابئة والهندوس وغيرهم، انطلاقاً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سُنُّوا فيهم سنة أهل الكتاب " رواه الإمام مالك في الموطأ .

وعندما جاء وفد نصارى نجران إلى المدينة (وهم أقلية) في عام الوفود سنة ١٠ هـ، ٦٣١ م، فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد النبوة لهم، فصلوا فيه صلاة عيد الفصح، الذي حان موعده، وهم ضيوف على الرسول ﷺ .... وقد تم التقنين تفصيلاً لاحترام جميع المقدسات غير الإسلامية في الوثيقة الدستورية " العهد " التي جاء فيها: " ولنجران وحاشيتها (نجران النصارى) ولأهل مِلَّتها، ولجميع مَنْ ينتحل دعوة النصرانية في شرق الأرض وغربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وأعجمها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله، على

أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم ومن تبعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير .. بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي .. لأني أعطيتهم عهد الله أنَّ لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم .

ولم تقف هذه السماحة عند دولة النبوة، بل كانت سمة عامة طيلة تاريخ الإسلام "[1]

(العهد العمري لأهل القدس من النصارى، وتحرير كنائس الأرثوذكس في مصر بعد فتحها من قبل عمرو بن العاص، وإعادتها إلى الأقباط ليمارسوا فيها عباداتهم وظل ذلك ديدن حضارة الإسلام في تقديم السماحة وقبول الآخر من الأقليات وجعلهم شركاء مواطنين كما المسلمين، فبعد فتح مصر بأجيال وقرون حيث قال رجل الدين القبطي ميخائيل السرياني بعد قرون من الفتح الإسلامي: " لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا بسلام " [1]

---

(١) مما قاله الأستاذ الدكتور (محمد عمارة) في مقال له في مجلة المجتمع الكويتية العدد ٢٠٧٧ .

(١) مما قاله الأستاذ الدكتور (محمد عمارة) في مقال له في مجلة المجتمع الكويتية العدد ٢٠٧٧ .

٢ ـ ما يتعلق بالعدل والمساواة، حيث كان العالم وما يزال يخضع للقوي وأهوائه ونزواته ورغائبه في الهيمنة والسيطرة والاستيلاء على حقوق وممتلكات الآخرين، في حين أن الإسلام وحضارته ومدنيته قدمت للإنسانية: إخراج البشرية من تسلط الإنسان على الإنسان إلى نعيم المساواة والعدل والحرية والكرامة الإنسانية لجميع الناس مسلمين وغير مسلمين داخل دولة الإسلام، من غير إكراه ولا تسلط: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾.

وكأمثلة على ضمان هذه العدالة والحرية والمساواة نورد حادثة الصحابي الجليل أبي ذر عندما عيّر خادمه بأمه السوداء، فعاتبه ولامه الرسول ﷺ بقوله: «إنك امرؤ فيك جاهلية لا فضلَ لابن البيضاء على ابن السوداء إلا بالتقوى» (متفق عليه). وكانت النتيجة أن وضع أبو ذر خده على التراب وطلب من خادمه أن يدوس بنعله على خده ليزيل من نفسه الجاهلية.

وغير بعيد عنا قصة القبطي الذي تسابق مع ابن عمرو بن العاص، وقول عمر بن الخطاب له " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " وأمر القبطي أن يقتص من ابن الأكرمين ضرباً .

وقصة جبلة بن الأيهم الأمير الغساني مع الأعرابي الذي لامست قدمه رداء جبلة أثناء الطواف، فما كان من جبلة إلا أن ضربه على وجهه ضربة قاسية .. وعندما شكاه الأعرابي إلى عمر رضي الله عنه، جاء به عمر وطلب من الأعرابي أن يقتص من الأمير، فقال جبلة لعمر: كيف

يكون ذلك يا أمير المؤمنين وأنا الأمير وهو من السوقة ؟ فيقول له أمير المؤمنين عمر: لقد سوّى الإسلام بينكما .

وخير مثال على إقامة العدل عند المسلمين في دولتهم تعاملهم على مدى الزمان بحماية الكليات التي تمثل حقوق الإنسان وحفظها ورعايتها، وهذه الكليات هي: العقل، والدين، والنفس، والعرض، والمال، وقد ظلت هذه الحقوق الإنسانية، التي نقلت إلى حضارات أخرى (قليل منها أو كثير)، تقدمة من حضارة المسلمين ودولتهم على مدى الزمان، وإن انحرف المسلمون عنها، وابتعدوا عن معانيها قليلاً أو كثيراً..[1]

٣ ـ وكذلك كان عبور حضارة الإسلام إلى العالم الغربي والإنسانية جمعاء عن طريق العلوم والآداب وإدارة الحياة الاجتماعية، والجمع بين الروح والمادة، في إناء الإنسان، إنها حضارة القرآن، وهي الوحيدة التي حققت هذا الجمع، الذي هو الركن الركين في الحياة الإنسانية، وفيما يلي من سطور نقدم البراهين توثيقاً لهذا البند: أ ـ نورد هنا رسالة ملك انكلترا جورج الثاني، إلى أمير الأندلس هشام الثالث، التي أرسلها مع بعثة دراسية وتعليمية، وعلى رأسها ابنة شقيق الملك جورج الثاني وفيما يلي نص الرسالة :

" من جورج الثاني ملك إنكلترا والغال والسويد والنروج إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس. صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام، بعد التعظيم والتوقير، فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع

---

(١) اقتباس بتصرف من كتاب حتى يتحقق الشهود الحضاري للأستاذ عمر عبيد حسنة .

بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل، لتكون حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أركانها الأربعة. ولقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دوبابت) على رأس بعثة بنات أشراف إنكلترا، لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف، لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وحماية الحاشية الكريمة، وحدب من اللواتي، سيتوفرن على تعليمهن.

ولقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل. أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص ."[1]

من خادمكم المطيع جورج الثاني
ملك إنكلترا والغال والسويد والنرويج

- ويقول ديورانت " لم تنعم الأندلس طول تاريخها بحكم رحيم عادل كما نعمت به في أيام الفاتحين العرب ... ولقد كانوا أقدر أهل زمانهم على تصريف الشؤون العامة في العالم الغربي"[2]
- وفي الفلسفة قدم الإسلام والمسلمون الكثير للغرب وللعالم الذي تأثر به واتبعه، فقد قال الفيلسوف الغربي " ريموند": " إذا لم يكن التأثير الأول الفعال (في فلاسفة الغرب) عربياً فكيف نفسر اختلاط اسم أرسطو بالتعاليم المنسوبة إلى ابن رشد أجيالاً طويلة ". [3]

---

(١) من كتاب روائع وطرائف ص (٣٠ ـ ٣١) للأستاذ الشيخ إبراهيم النعمة ـ بغداد .

(٢) من كتاب قصة الحضارة ج٢ م٤ ص٢٩٢ ـ ٢٩٣ .

(٣) من كتاب سعيد عبدالفتاح عاشور (حضارة أوروبا في العصور الوسطى) ص٢٧٧ ونقله عنه الأستاذ محمد فاروق الإمام في كتابه (معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا) ص ٢٥٨ .

• وفي الأدب قدم الإسلام والمسلمون للعالم اللغة العربية الرائعة وآثارها الجميلة، وتأثر بها العالم، وأخذ عنها مغانيها وفنونها وعظمتها، ومن ذلك ما قاله (جورج ياكوب) المستشرق الألماني الذي أصدر كتابه الشهير " أثر الشرق في الغرب: " إن القافية هي التي خلقت ذلك النثر القوي في شعر (جوته) الوجداني، وإليها يرجع الفضل في هذه الموسيقى الجميلة التي يحسها القارئ لشعر (بلاتن) ونثر (ستفن جورج) وغيرهما من أعلام الأدب في أوروبا"[٢]

• ويقول جب المستشرق الإنكليزي في كتابه (تراث الإسلام): إنه قلّ من يستطيع أن ينكر أن ما تمتاز به آداب الجنوب الأوروبي من انبساط وخيال خصب يرجع إلى تأثر تلك الآداب بالمؤثرات العربية، كما يرجع إلى ما خلفته الثقافة العربية من آثار في أهل الأندلس " [٣] .

وفي العلوم: تفوق المسلمون في الرياضيات بلا منازع، فقدموا فيها اختصاصاً واختراعاً، جيوب الزوايا، وجيوب التمام، وجيوب الأقواس، ومماسات الأقواس المتماسة، وحساب المثلثات[٤] ونبغوا في الرياضيات، وأعلام أفذاذ نقلوا للعالم مخترعات رياضية وحسابية وهندسية عظيمة، كان لها الفضل في تقدم هذا العلم حتى يومنا هذا وما بعده .. ومن هؤلاء الأفذاذ: الخوارزمي، وثابت بن قره، والخازن البصري، وهؤلاء من المشرق الإسلامي، ومن المغرب الإسلامي: مسلمة

---

(٢) من كتاب معابر الحضارة مصدر سابق ص ٦٤ .

(٣) من كتاب معابر الحضارة مصدر سابق ص ١٩٢ .

(٤) ول ديورانت ص ٣٥٦ ـ مصدر سابق.

المجريطي، وابن السمح، وابن الصفّار، والكرماني، وأمية بن أبي السلط، وغيرهم ..

يقول اليعقوبي: (أحمد بن إسحاق) المؤرخ، يشير إلى رمز الصفر في الأرقام والحساب: الذي يعتبر من أعظم الابتكارات التي اهتدى إليها العقل البشري في الرياضيات، حيث يقول (جورج بيدل ايري) الفلكي البريطاني الذي مات سنة ١٨٩٢م، إذ يقول: " إن فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التي قدمها المسلمون إلى غرب أوروبا " وللعالم[١].

وفي الفلك: أبدع علماء المسلمين علوماً وآلات ظلت مستعملة في أوروبا وفي العالم حتى القرن الثامن عشر الميلادي، حيث بنوا بعدها على تلك، وطوروها .. ومن هذه المخترعات الإسلامية إثبات كروية الأرض، وقياس الدرجة الأرضية، حيث قدروها بستة وخمسين ميلاً وثلثي الميل، وهو يزيد بنصف ميل عن التقدير العصري، وبناءً على ذلك أوجدوا محيط الأرض بما لا يختلف إلا قليلاً عن التقديرات الحالية .. وقد طور المسلمون آلة الإسطرلاب التي كانت معروفة، كما شملت مخترعاتهم التي أهدوها للعالم آلات قياس الزوايا[٢].

وهكذا قدم المسلمون الكثير الكثير في العلوم. ومن أراد أن يعلم تفاصيل ذلك فليرجع إلى الكتب التي تضمنت مخترعات المسلمين وتَقْدِماتهم العلمية للعالم، ومنها كتاب ول ديورانت وجوستاف لوبون

---

(١) حضارة أوربا في العصور الوسطى ص ٢٨١.

(٢) عاشور ص ٢٨٨ ـ مصدر سابق ـ .

والزيج الصابئ لمحمد البتاني العالم الفلكي والرياضي والفيلسوف وغيرها من كتب المنصفين وما زال علم الفلك حتى اليوم مليئاً بالمصطلحات العربية في الفلك مثل: (الطرف altaref) و(كرسي الجوزاء gursa) و(الكف cabh) و(الأرنب arnab) و(العرقوب arkab) و(السمت azimutn) و(البطين botein) و(زبانتي العقرب zuben hak rabi) و(الوزن wazn) و(صدر الدجاجة sadr) و(سعد السعود sad alsud) وغيرها كثير[1] وسنكتفي بهذه الأمثلة من تقدمات الإسلام وعلماء المسلمين للعالم، تاركين تقدماتهم الصناعية والطبية وفي الكيمياء والجغرافيا والصناعة والمدارس الكبرى والجامعات وغيرها، وليرجع من يريد الاستزادة إلى مراجع كل ذلك وهي موجودة في المكتبات، فلا يعجز أحد من المجتهدين الذين يرغبون في فهم النبوغ الإسلامي في شتى مجالات الحياة ..

٢ ـ **المواطنة:** ورد في المعجم الوسيط قوله في معنى المواطنة: وَطَنَ بالمكان (يَطِنُ) وطْناً، أقام فيه، (أوطن) المكان: وَطَنَ به، وأوطن البلد، اتخذه وطناً .. واطَنَهُ على الأمر: أضمر فعله معه، وواطنه: وافق عليه، وواطن القوم: عاش معهم في وطن واحد (محدثة) .

ـ وفي معجم اللغة العربية المعاصرة قال: مواطنة (مفرد)، وهي نزعة، ترمي إلى اعتبار الإنسانية أسرة واحدة، وطنها العالم، وأعضاؤها أفراد البشر جميعاً، وهي تفرض على كل الشعوب: احترام حقوق الإنسان،

---

(١) عاشور ص ٢٨٨ ـ مصدر سابق ـ .

وعدم التمييز بين أبناء الوطن الواحد وسكانه الذين ينتمون إليه على أساس الدين أو اللغة أو العنصر أو الجنس، كون المرء مواطناً من مواطني دولة، له حقوق فيها تكفلها له الدولة، وبالمقابل عليه الالتزام بالواجبات التي تفرضها عليه (أعطي حق المواطنة) [1]

رابعاً: كيف وصلنا إلى المواطنة :

ولنعد الآن إلى صلب موضوع الكتاب وهو مكونات الشعب السوري والمواطنة، فنقول :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [يونس: ١٩]، وكان عددهم في ذلك الوقت قليلاً محدوداً .

خلق الله آدم عليه السلام ومنه خلق زوجه حواء، ثم تكاثرت ذريته وبدأت تنتشر في الأرض، وتتنوع أعراقها ومعارفها وثقافاتها شيئاً فشيئاً، واتخذت كل مجموعة عرقية أو معرفية أو دينية لغة تدرجت في الابتعاد عن اللغة الأصل، التي علمها الله لآدم وهو في الجنة، قبل أن يهبط على الأرض .

ووصل الناس بعد آلاف السنين بل عشرات الآلاف إلى ما نراه اليوم ونعلمه من ذلك التوزع الإنساني وتنوعه، على آلاف الأعراق والأديان والثقافات، والتحيزات المكانية. ونشأت بين تلك المنوعات البشرية ما

(١) كل التعريفات ومعانيها القاموسية مأخوذة من (arabdict)، قاموس عربي عربي منشور في فيسبوك .

نشأت من منافسات على ممتلكات الأرض، مع أن الجميع من أرومة آدم وحواء ؛ أصل واحد، ورحم واحدة، ودين توحيد، حمله إلى الأرض وزوجه .

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ .. عندما هبط آدم وزوجه إلى الأرض وظلّوا كذلك مع أبنائهم وذرياتهم القريبة.. فلما كثروا وتفرقوا، وأخذوا يبتعدون عن الهداية الأصلية: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وهكذا وجدت الأقوام والمكونات والديانات والمذاهب والثقافات المتنوعة والأقليات ومع تقادم الأزمان أصبحت الأمكنة أوطاناً، تحمل سمات جغرافية وحدوداً معينة، وقد تضم أعراقاً وأدياناً ولغات وثقافات، لكنها في عصرنا الحديث، وبوجود العيش المشترك، ومصلحة الجميع، والحفاظ على أمن الوطن والمواطن، والحفاظ على الاستقرار والحريات، أوجدت مصطلح: " المواطنة "، التي تعني الاتفاق التعاقدي بين الذين يعيشون في الوطن الواحد على كل العناصر التي ذكرناها آنفاً ؛ فالمكان وجغرافيته وحدوده يجمعهم، والمصالح والعيش المشترك يدفعهم للتفاهم والتعاضد والقبول بالآخر المختلف في دينه أو عرقه أو لونه أو وجهة نظره، واللغة الغالبة المشتركة، تجعل التفاهم قريباً سهلاً، فالمصلحة المشتركة في الحفاظ على استقرار الحياة، ورفعة وحرية وحقوق المواطن، والدفاع عن كل ذلك، مع نشوء آمال مشتركة في المستقبل ولترقية العيش، أصبحت جامعاً وطنياً موحداً، تحدوه حرية يتنسمونها، وكرامة يودون أن تكون رافعة هاماتهم، ترعاها مؤسسات الدولة، التي تتم تشكيلاتها الهامة بالاختيار الحر النزيه، كما يتم

انتقالها بسلاسة الشورى والآليات الديموقراطية، التي تتأسس على الشراكة التامة، بعيداً عن الإقصاء والاستثناء وأي اعتبارات أخرى، تنقض مبادئ الحرية والديموقراطية أو حقوق المواطن الكاملة، أو المساواة الفاضلة التي ترعاها مؤسسات قضائية عادلة راقية الأخلاق والمهنية، وفرص مفتوحة للجميع على قدم المساواة والكفاءة، وثروة توزع بعدالة .

وإذن فهذه الصورة الزاهية التي رسمناها هي مقومات الوطن الواحد الذي يحفظ المواطن والمواطنة بغض النظر عن أكثرية أوأقلية، عندما يتعلق الأمر بحقوق المواطن والمساواة والعدالة والفرص المتكافئة والحرية .

إذن إن العمل في مؤسسات الدولة من أدناها إلى أعلاها مفتوح أمام الجميع، تفتحه صناديق الاقتراع النزيهة، والكفاءات المتميزة .

خامساً : البعث والأسد والأقليات والمواطنة :

لقد قام نظام أسد بالتلاعب بموضوع الأقليات المذهبية والدينية والعرقية بهدف الإمساك بزمام الأمور وتثبيت مركزه، وتسويق وجوده لدى الأغيار .

يشكل العرب السنة في سورية ما نسبته ٦٨٪ ويشكل الأكراد السنة حوالي ٨٪ .

والعلويون وهم عرب يشكلون حوالي ١٠٪ .

والمكون المسيحي ٨٪ وأكثرهم عرب .

وباقي السكان تتوزعهم مكونات قليلة العدد، منهم الدروز والإسماعليون وهم عرب، واليزيديون وهم كرد [1] إن هذه الإحصائية لسكان سورية تبين مكونات الشعب السوري، الذي يشكل فيه المسلمون السنة بحدود ٧٦٪ من مجموع السكان، وقد عاش المجتمع السوري غالب الوقت منذ الفتح الإسلامي ومنها حوالي عشرين عاماً بعد الاستقلال بانسجام تام بين مكوناته، وكان أفق الحريات والحقوق في حدوده المقبولة لجميع المكونات، وكان الأفق مفتوحاً أمام المواطن حتى عام ١٩٦٥ ليتسنم أي منصب في الدولة، لا يقف في طريقه أي عائق ديني أو عرقي أو لون أو توجه. فلما قام حافظ الأسد وصلاح جديد بانقلابهما الطائفي (٢٣ شباط (فبراير) ١٩٦٦م) إذا بالإثارات الطائفية تعلو، فقد وظفا إثنيتهما العلوية المذهبية ضد الأكثرية التي هي المكون السني، كما حاولا اللعب على بقية المكونات، بالمناصب وبالمال وبالتهديد الأمني أحياناً كثيرة، وذلك لترسيخ نفوذ الطائفة العلوية على أنها راعية الاستقرار في سورية والمحافظة على الأقليات ومنهم اليهود، الحامون لحدود الكيان الصهيوني، وهذا هو بالذات الاختراق الأخلاقي، الذي جعل الغربيين يميلون ميلاً واضحاً لبقاء آل الأسد حاكمين لسورية، مع ما يعرفونه من بطش هذه العائلة بالشعب السوري وتشريده، واستهتارها بكل حق من حقوق السوريين. وكان الفرنسيون قد بدأوا بتوظيف الأقليات في سورية، لتثبيت وجودهم الاستعماري أثناء انتدابهم على سورية من قبل الأمم

---

(١) arabdict مصدر سابق.

المتحدة، وذلك تحت شعار (الدفاع عن مصالح الأقليات)، وهو الشعار نفسه الذي وظفه حافظ الأسد من جديد وتبعه في ذلك وريثه بشار ابنه، فقد قامت العائلة منذ انقلاب حافظ الأسد (تشرين الثاني ١٩٧٠م)، بتعبئة المناصب الحزبية العليا والمناصب الأمنية والعسكرية من العلويين[١] وهكذا جمع الأسد من خلال سياسته الطائفية والهيمنة العسكرية والأمنية والحزبية ثم امتلاكه للثروة الوطنية التي تصرف بها، فجعلها في يده وتحت تصرفه، يبيع من خلالها من يشاء ويشتري من يشاء من أتباعه الطائفيين ومن الموالين بالأطماع والإغراء من المكونات الصغيرة والكبيرة للشعب السوري. وبهذه السياسة سيطر على مقدرات الوطن، وقمع الشعب، وهمشه، وبطش بكل من يهمس ولو همساً بمعارضته .. وهكذا فإنه بعد أن أفضى الحكام السوريون منذ الاستقلال وحتى منتصف الستينيات إلا قليلاً يحاولون محاربة الطائفية، ويسعون إلى صفاء العلاقات وطيبتها بين مكونات المجتمع السوري، صغير ذلك المكون وكبيره[٢]. جاء الأسد ببدعة باطنية حاولت توظيف الطائفية لتشتيت وحدة الشعب السوري ولتخريب انسجام مكوناته .

ومن المواقف التي تدحض ادعاء النظام الأسدي بأنه حامي الأقليات ما يلي :

- في عام ١٩٦٧ حذفت حكومة انقلاب أسد وجديد أية إشارة إلى وجود الكرد في سورية في كتب الجغرافية المدرسية. كما منعت في

(١) من تقرير حقوق الإنسان في سورية منظمة رقيب الشرق الأوسط. الصفحات ١٨٦ ـ ١٩٢ ـ ١٩٣ .
(٢) من تقرير حقوق الإنسان في سورية منظمة رقيب الشرق الأوسط. الصفحات ١٨٦ ـ ١٩٢ ـ ١٩٣ .

سجل الأحوال المدنية أي اسم كردي من التسجيل، وكذلك فإنه في عهد انقلاب حافظ أسد عام ١٩٧٠ م:

- أعيد تسمية الكثير من القرى الكردية لتصبح أسماؤها عربية.

ومن السياسات التي فاقمت موضوع الطائفية، وزادت من انبعاث المشاعر الطائفية في صفوف المجتمع السوري بمكوناته المتنوعة، قيام حافظ الأسد - خصوصاً بعد انقلابه الذي سماه "الحركة التصحيحية" تشرين الثاني ١٩٧٠م - بتعبئة المناصب الحزبية العليا والرتب الأمنية والعسكرية بمستوى لواء وقيادة فرق بالعلويين، وإقصاء المكون السني من الجيش والأمن والحرب، وكذلك المكونات الصغيرة الأخرى، ولكن بحدود أقل. ولقد استغل الطائفيون حاجة الأسد لهم وعلى الأخص الذين هم من المقربين منه عشائرياً أو مناطقياً أو ولاءً مطلقاً في جمع ثروات هائلة وإفقار البلاد، بحيث أصبح رفعت الأسد شقيق الرئيس أغنى الجميع، بواسطة التهريب المحمي وحماية مشاريع الغير الفاسدة، مقابل عمولة مناسبة، وأصبح يمتلك أكبر مجمع سكني في جنوب إسبانيا ما قيمته ٢٨ مليار دولار وكازينو في مالطة، وفندقاً فخماً في مارسيليا (فرنسا)، ومعمل إسمنت في بيروت، ودار نشر في باريس، ونسبة كبيرة من أسهم وسندات في شركة دولية (إنكلوفرنسية) وقنوات فضائية ودور نشر .. [1] وبقي محمياً دبلوماسياً تحت اسم نائب رئيس الجمهورية على الرغم من كونه في المنفى .

---

(١) تقرير حقوق الإنسان في سورية ص ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، بتصرف غير مؤثر على الأصل .

ومع كل تلك السياسات والسلوك الطائفي البارز، ظلت جريدة تشرين (العلامة الرئيسية لإعلام أسد) تشيد بعهد أسد، على أنه عهد جديد من الوحدة الوطنية الإيجابية والفاعلة[1].

واتبع النظام الحاكم شعار " رمتني بدائها وانسلت "، إذ إنه اتهم الحركة الإسلامية بداء الطائفية زوراً وبهتاناً، هادفاً من وراء ذلك إلى تسويغ إقصائه للحركة وأعضائها والبطش بها، والاستئثار بثروات البلاد، وبكراسي الحكم، ولبيع مقدرات الوطن السوري ومناعة شعبه للأغيار من غربيين وصهاينة وإيرانيين، سياسياً وأمنياً واقتصادياً، ولتأمين الحدود مع الصهاينة، وهو البند الذي يحرص عليه الغربيون وحلفاؤهم الصهاينة أشد الحرص .. ولذلك فهم أيدوا سياسات الأسد في موضوع شرذمة الشعب السوري إلى فئات متناحرة، وطوائف مختلفة، ليبقى الأسد وبعض الطائفيين المحالفين له قابضين على زمام الأمور في سورية، محافظين على أمن الصهاينة، مضطهدين للمقاومين لتلك السياسات العميلة من إسلاميين وفلسطينيين ولبنانيين وعرب شرفاء. إنه من العجب أن يبقى البعض مصراً على تأييد العصابة الأسدية مسوغين تلك السياسات، من احتكار الوطن، وإثارة إحن الأقليات والأكثريات، وفتح الأبواب أمام مشروع فارسي بغطاء شيعي، كي يظل الهدم والقتل مستمراً في شعب سورية بكل فئاته ومكوناته، وعلى وجه الخصوص ذلك الذي يحدث للمكون الأكبر

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٣

السني من ذبح وتشريد وتخريب، بناءً على تقلب المواطن السوري في سياسة التمييز الطائفي الأعمى على مدار الساعة، وعلى كل المستويات، وفي كل مناحي الحياة [1] .

ولا بأس أن نذهب مع الدكتور رفيق حبيب* الذي نبذ كل توجه طائفي، إذ قال :

" إن المعركة ضد السنة، أوضد أي مشروع سني، ستوسع دائرة معارك الربيع العربي، ليصبح الربيع العربي هو حراك السنة العرب، من أجل إيقاظ دور السنة في حياة الأمة الإسلامية، وبالتالي دور الأمة الإسلامية من جديد " [2].

وفي مكان آخرمن مقاله يقول: ينحصر المشروع الإيراني في أبعاده الطائفية الإقليمية، وإيران بذلك تجاوزت الثورية إلى التحالف مع أمريكا ومع الأنظمة السلطوية العربية، وقد حفر النظام الأسدي خندقاً على طول الحدود مع العراق، مع أنهم لم يفعلوا ذلك مع إسرائيل، ودقوا أسافين الفرقة بين أبناء الوطن، وأحيوا الطائفية وأصّلوها حتى صارت بدهية متعارفاً عليها " [3].

---

(١) من كتاب (المشروع الإيراني المقدمة) ص ٥ ط ٢١ مركز أمية ودار عمار للنشر والتوزيع ـ عمّان ـ الأردن.

* مفكر مصري حرّ من الطائفة القبطية، ونائب رئيس حزب الحرية والعدالة.

(٢) المصدر السابق ص (٤٩ ـ ٥٠) .

(٣) المصدر السابق .

وهكذا .. فإنه تأسيساً على توافق أسد مع " أجندة " الغربيين والصهاينة وإيران الفارسية، ترسخت الممارسات الطائفية في سورية، حيث اتخذها نظام الأسد نقطة ارتكازه، وذلك لخدمة ثلاثة أغراض:

١ ـ لتثبيت كرسيه في حكم سورية (بإضعاف الجميع من خلال التحكم في الطوائف والمكونات السورية) ثم للانفراد بالسلطة والثروة .

٢ ـ لكسب رضى الأغيار الذين اعتمد عليهم بمباركة وصوله إلى حكم سورية وتوريثه لابنه .

٣ ـ وليتيح لهؤلاء الأغيار (الغربيين، والإيرانيين وذيولهم، والروس ومطامعهم) مداخلاتهم المعوقة للثورة الشعبية السورية (ثورة الحرية والكرامة)، محتجين بالمحافظة على الأقليات وتأمين حقوقهم، وهي الحقوق التي انتهكوها منذ أيام الانتداب الفرنسي ومداخلات بريطانيا المدعية الحرص على حق الإنسان السوري وأقليات الشعب السوري، بينما في الحقيقة لم تكن تلك المداخلات إلا محاولات استعمارية وأطماع احتلال، يغطونها بالشعارات الكاذبة منذ انقلاب حسني الزعيم بتخطيط وإشراف أمريكي لإنهاء أي تجربة ديمقراطية في سورية وفي المنطقة. وهذا ما فعله انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣م البعثي، ومن بعده انقلاب الأسد في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠، بل إن هذا الأخير برز في هذا الميدان بروزاً فاق كل ما مرّ على سورية من تلاعب بالمكونات السورية واتخاذها وسائل لتحقيق الأهداف المشبوهة .. ومنها المطامع الاقتصادية كما بينا آنفاً، والأهداف السياسية، وأهمها حماية كيان

الصهاينة، بإبعاد الإسلاميين والوطنيين الشرفاء عن تحقيق أي اختراق باتجاه تسلم السلطات في بلدان المسلمين، وعلى الأخص في سورية البلد المحوري في المنطقة المحيطة بالكيان الصهيوني .. هذا فضلاً عما يدعم مطامعهم السياسية، مثل الهيمنة الثقافية، والابتعاد بها عن دين الأمة وثقافتها العربية والإسلامية، التي تحفظ تماسكها ووحدتها واستقلال قرارها .

وقد وصل الأمر بالنظام الحاكم في سورية برئاسة بشار الأسد أن سلم المصائر السياسية والاقتصادية والعسكرية، وحتى المجتمعية لإيران الفارسية لإيجاد مرتكزها الأساسي للمشروع الإيراني في المنطقة العربية والإسلامية، لتعيث فساداً وتمزيقاً للمكونات السورية العرقية والإثنية والسياسية والثقافية، وذلك تحت ضغط معضلات إيران التاريخية والمعاصرة المتمثلة بنقاط ثلاث :

١- الإحساس بالتفوق العسكري على الجوار العربي والسني.

٢- الإحساس بالعزلة الثقافية عن الجوار العربي بفعل اختلاف اللغة والدين .

٣- الإحساس بالكراهية تجاه العرب [1]. وهذه الكراهية تنعكس على سلوك إيران الفارسية بإسقاط عقدة الدونية التي تنتابهم تجاه المكون العربي السني، على حالة من الاحتقار للعرب ومحاولات دائمة مستمرة تاريخياً وعصرياً، وأكبر شاهد على هذه الحالة

(١) سيد قطب / كتاب السلام العالمي والإسلام / ص١٨٤ ط١ دار عمار عمان ٢٠١٤ م وكان الكتاب قد طبع قبل عام ١٩٥١ في مصر .

التدخل الإيراني في كل من سورية والعراق والآن في اليمن، ومن قبل في لبنان، وفي أثيوبيا وأرتيريا والسودان وكثير من الدول الإسلامية .

ولعل مراجعة بسيطة لمقترح إيران (the grand deal) الذي طرحته على الغربيين، يوضح مدى اللعب السياسي بالمكونات المجتمعية، وكذب ادعاء بشار الأسد بأنه حامي الأقليات في سورية، وذلك عندما أسلم وضعه كله للمشروع الامبراطوري الإيراني الصفوي الفارسي، الذي ابتعث شرذمة المكونات المجتمعية المذهبية والعرقية والثقافية على أشدها، وبصيغها الكريهة الحاقدة .

وقد كان طرح الإيرانيين لذلك المقترح عشية الاحتلال الأمريكي للعراق ٢٠٠٣م .

ومما جاء في ذلك المقترح :

- تعترف إيران أن أسلحة الدمار الشامل والإرهاب قضيتان مهمتان بالنسبة لها .
- تعمل إيران على وقف دعم حماس والجهاد الإسلامي في صراعهما مع إسرائيل، والضغط عليهما كي توقفا هجماتهما عليها.
- دعم إيران لعملية نزع سلاح حزب الله وتحويله إلى حزب سياسي .
- فتح البرنامج النووي الإيراني بالكامل أمام عمليات التفتيش الأممي .
- تتعاون إيران بصورة كاملة لمواجهة كافة المنظمات الإرهابية .
- الاعتراف رسمياً بالحل القائم على دولتين فلسطينية وإسرائيلية[1].

---

(١) المصدر السابق ص٣٥ /٣٦ .

سادساً: مكونات الشعب السوري: واقعاً ومستقبلاً .. ورؤية الإخوان المسلمين بشأنها:

أولاً نظرياً:

أ ـ مقتبسات من سيد قطب:

يقول سيد قطب يرحمه الله: " إن في روح الإسلام من السماحة الإنسانية ما لا يملك منصف أن ينكره أو يراوغ فيه، وهي سماحة مبذولة للمجموعة البشرية كلها لا لجنس فيها، ولا لأتباع عقيدة معينة، إنما هي للإنسان بوصفه إنساناً ... وهي روح تمكن له من إقرار السلام في الأرض، ومن تأليف الأجناس والألوان، ومن إشاعة السماحة والود والتراحم بين بني البشر، ومن تنقية جو الحياة من سموم التحاسد الفردي، والتطاحن الطبقي، والتناحر العنصري: (العرقي والمذهبي) [1].

ويقول سيد أيضاً في نبذ الفرقة بين مكونات المجتمع المحلي والبشري:

" وذلك أن الإسلام ينفي، منذ الخطوة الأولى، معظم الأسباب التي تثير في الأرض الحروب .. يستبعد الحروب التي تثيرها القومية العنصرية، وهو يقرر أن الناس كلهم من أصل واحد، وأنهم خلقوا كلهم من نفس واحدة، وأنهم جعلوا شعوباً وقبائل ليتعارفوا، وهو يأمر بالتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وهو يحرم

---

(١) الإسلام وحقوق الإنسان لمحمد عبدالمنعم خفاجي ص٢٣ طبعة اولى.

السلب والنهب والغصب، وهو يَعِد البشرية كلها بالعدل المطلق، لا فارق بين جنس أو لون أو عقيدة.." [1].

ونحن قد بدأنا باقتباس رأي الشهيد سيد قطب في موضوع مكونات البشر وتعامل الإسلام معها، كي نضع في ذهن الناس أن الإسلاميين الأحرار وفي مقدمتهم جماعة الإخوان المسلمين، يتعاطون مع المفاهيم التي يعدونها معاصرة بروح القبول والعمل نظرياً وميدانياً، وفي رأس القائمة الإسلامية بهذا الشأن الشهيد سيد قطب، وذلك دحضاً منا لما ذهب إليه البعض، لوضع سيد رحمه الله في خانة التطرف والفكر المغالي ..، وهو - كما أوردنا آنفاً - يرد بذاته وببيانه العالي على أولئك الذين هم يسيرون باتجاهين، اتجاه مغرض، يريد أن يشكك الناس بالفكر الإسلامي بصورة عامة، من خلال التشويش على توجهات ومقولات إسلامية خالصة قالها كبار من الإسلاميين مثل الإمام الشهيد حسن البنا، والمفكر الفذ سيد قطب.

ب - مقتبسات أخرى :

قبل أن ننتقل إلى الكلام عن مكونات الشعب السوري ومستقبلها: نود أن نضع الناس في واقع تنظيرات وميدانيات الإخوان المسلمين بشأن تلك المكونات (الأقليات) ومآل التعامل معها عندهم وحرصهم على حقوق الإنسان عامة.

---

(١) ندوة روما، جريدة الشرق الأوسط ٢٠٠٠/٢/٢٦.

أ- فقد بين الأستاذ عدنان سعد الدين يرحمه الله أن هذه الحقوق في الإسلام: " ليست حقوقاً نسبية تخضع لعوامل الصراع الطبقي أو الخلاف المذهبي أو التناحر العرقي ... إنما تنطلق حقوق الإنسان في الرسالة الإسلامية من عقيدة إيمانية راسخة، لا ينال منها موقف سياسي أو اجتهاد فقهي، فهي حقوق مطلقة، لا يحدُّ منها تغير الزمان ولا امتداد المكان، ولا تبدل الأحكام والحكام..

لقد كانت رسالة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم أول إعلان عالمي لحقوق الإنسان وأكبر حركة تاريخية لحفظ حياته وصون كرامته وتأييد شخصيته، وإحياءً عاماً شمل جميع ميادين الحياة[1].

ففي الندوة التي عقدت في روما عن حقوق الإنسان جاء في كلمة الأمين العام لجامعة الدول العربية، وألقاها بالنيابة عنه السيد محمد علي محمد رئيس بعثة الجامعة في روما ما يلي: " يتضح من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية: أن التاريخ الحقيقي لحقوق الإنسان يبدأ منذ خَلْقِ الإنسان، وإن مانح هذه الحقوق للإنسان هو الله خالقه ورب العالمين، وليس كما يزعم البعض، أن الوثيقة الإنجليزية المسماة - العهد الكبير- هي أول وثيقة لحقوق الإنسان ". [2]

---

(١) ندوة روما جريدة الشرق الوسط ٢٠٠٠/٢/٢٧ .

(٢) د. عبد المنعم عضو مكتب الإرشاد السابق لجماعة الإخوان المسلمين في مصر من كتاب (التعددية وحق الاختلاف من منظور إسلامي ص٣٤٩/٣٥٠ للدكتور: " رائد نعيرات " أستاذ العلوم السياسية - جامعة النجاح / نابلس) ..

وجاء في كلمة د. عبدالعزيز التويجري مدير عام المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (سيسكو) عن حقوق الإنسان في التعاليم الإسلامية قوله " بالرجوع إلى منشأ فكرة حقوق الإنسان في صيغتها الراهنة، ومن خلال المراجعة المستأنية للأسس التي قامت عليها الدعوة إلى حقوق الإنسان عبر جميع المراحل التي قطعتها منذ القرن السابع عشر وحتى اليوم، يثبت لنا أن جميع المواثيق والإعلانات والفصول الخاصة بحقوق الإنسان وهي تكاد تصل إلى مائة إعلان واتفاق وعهد دولي أخذت مبادئها الكلية ومنطلقاتها الأساسية عن الأصول الإسلامية[1].

ب- وقلت في كتابي (كلمات في الصميم): حول الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء ٣٧] " إن هذه الآية ورفيقاتها من القرآن الكريم، تتحول بالتعامل المتأمل المؤمن إلى أنشودة قلبية تملأ الأرواح بحشود هائلة من المعاني الاجتماعية الراقية، المفضية إلى جنات مجتمعية، بهاءُ أهلها التواضع، وزينةُ أفرادها السلام والأمن، وسلاحهم الذي يرمون به الآخرين الكلمة الطيبة، والابتسامة المشرقة، والحب الإنساني في الله خالياً من كل غرض ... فقد قال رب العزة مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء ٢١٥]، كما خاطبه قائلاً جل من قائل: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا

(١) من كتاب (مصطفى السباعي الداعية المجدد) للدكتور عدنان زرزور ط١ ٢٠٠٠م، منشورات دار القلم دمشق ص٢٤٤ .

نَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [الضحى ٩-١٠] وقال جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات ١٣] لا لتتناكروا، بل لتكون الحقوق الإنسانية فيما بينكم مصونة، تتعايشون وتتصادقون بغض النظر عن الجنس والدين والعرق".

ج - وأكد الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح موضوع المواطنة فقال :

" إن المواطنة فرض عين، بسبب أن المجتمعات العربية والإسلامية مرتبطة بتماسكها الاجتماعي، واستقرارها السياسي، ولن تحلَّ هذه القضية إلا بالتمسك بموضوع المواطنة في ظل الحرية والدساتير والقانون والمساواة أمام القانون " [1].

د - ومن المفيد هنا أن نشير إلى ما قاله بعض مثقفي الغرب بشأن سماحة الإسلام وحرصه على حقوق الناس، فقد نقل الأستاذ المفكر عدنان سعد الدين يرحمه الله في كتابه (البعد الإنساني في الرسالة الإسلامية) (ط ٢ ٢٠٠٦م ص ١٨٢) بعضاً من شهادات هؤلاء ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

- " يقول المؤرخ الشهير (ولز) في مصدر بحثه عن تعاليم الإسلام: إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتتفتح في الناس روح الكرم والسماحة، كما إنها إنسانية السمة ... إلى أن يقول عن الإسلام: إنه مليء بروح الرفق والسماحة والأخوة ."

(١) من كتاب (وثائق سورية (١))، إصدار مركز الشام للدراسات والمعلومات ص٣١٧/٣١٨

- ويقول السير مارك سايس في وصف الامبراطورية الإسلامية في عهد الرشيد: كان المسيحيون والوثيون واليهود والمسلمون يعملون في خدمة الحكومة .

ـ ويقول ليفي بروفستال في كتابه (إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر: إن كاتب الذمم كثيراً ما كان نصرانياً أو يهودياً، وقد كانوا (اليهود والنصارى) يتصرفون للدولة في الأعمال الإدارية والحربية، ومن اليهود من كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوروبا الغربية .

- ويقول توماس أرنولد :

- كان المسلمون على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس.." [1]

هـ- ويقول الدكتور عصام العريان: " المواطن هو كل شخص ينتمي إلى الوطن بغض النظر عن العرق أو الجنس أو اللون في الدولة الإسلامية، والدولة الإسلامية دولة تعددية .. والأمة هي مصدر السلطات في الدولة [1].

و- بتاريخ ٢٠٠٥/٤/٢١ وجه الأستاذ (علي صدر الدين البيانوني) المراقب العام الأسبق للإخوان المسلمين في سورية رسالة، لتقرأ في منتدى جمال الأتاسي، مشاركة من الجماعة في إطار الحوار حول الإصلاح في سورية: وقد جاء في تلك الرسالة ما يلي :

---

(١) المصدر السابق ـ صفحات من ٤٠ إلى ٥٨ .... فقرات منتقاة

(١) نفسه ص٩١ ـ ٩٢

" إن الدولة الحديثة: التعاقدية، والتعددية، والتداولية، والمؤسساتية، هي المظلة التي ترتفع على أساس متين من الإرادة الشعبية الحرة النزيهة، وهي الشكل الأمثل لبناء سورية الحديثة: دولة أنموذجاً، وهي المناخ الأفضل لتلاقح الأفكار، وتشابك السواعد لبناء الوطن وحمايته، واجتثاث الفساد والتصدي للإفساد .

واعتبر الالتزام بنبذ العنف والمطالبة بنبذه وإعلان الدولة الحديثة مطلباً إجماعياً، أكدنا ونؤكد مبدأ المواطنة أساساً ومعياراً، تقوم عليه متلازمتا (الحقوق والواجبات) وحتى لا نبدو منطلقين في تأكيد هذه الحقيقة من مناخ المرحلة الحالية ومقتضياتها، فإننا نشير إلى المذكرة التي تقدم بها الدكتور مصطفى السباعي مؤسس جماعة الإخوان المسلمين في سورية يرحمه الله إلى لجنة الدستور في المجلس التأسيسي (البرلمان) السوري بتاريخ ١٩٥٠/٢/٨، التي اقترح فيها إضافة المادة التالية إلى الدستور السوري: (المواطنون متساوون في الحقوق، لا يُحال بين مواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة " [1].

و- " المواطنة مفهوم قديم، يعبر عن الانتماء السياسي لفرد إلى كيان، وهو غير الانتماء القومي أو الديني .. ولقد كانت وثيقة المدينة المنورة النبوية التي عقدت بين المسلمين من مهاجرين وأنصار من جهة،

---

(١) من بيان الجماعة تحت عنوان (النداء الوطني للإنقاذ) في ٣ نيسان (إبريل) ٢٠٠٥ نقلاً من كتاب وثائق سورية (١) ص٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

وبين قبائل اليهود المقيمة في المدينة، تأصيلاً شرعياً لهذا المفهوم العصري، حيث شرعت تلك الوثيقة النبوية الانتماء الوطني .. ويرى الإخوان أن المواطنة أو الجنسية التي تمنحها الدولة لرعاياها قد حلّت محل مفهوم (أهل الذمة)، وأن هذه المواطنة أساسها المشاركة الكاملة والمساواة التامة في الحقوق والواجبات السياسية والمدنية التي يكفلها الدستور، وتنظمها القوانين مع بقاء مسألة الأحوال الشخصية .. والحقوق الدينية محفوظة طبقاً لعقيدة كل مواطن " [1] وهكذا يكون العلويون ومعهم كل المكونات الدينية والعرقية في سورية مواطنين لا أقليات ورعايا أو ذميين أبداً. وهذه هي رؤية جماعة الإخوان المسلمين في سورية للمكون العلوي وكل المكونات الأخرى .

- ومن بيان جبهة الخلاص الوطني السورية التي كان الإخوان المسلمون في سورية أحد أبرز أعضائها، نستقي الفقرة التالية :

ز ـ " إن غاية التغيير المنشود هي: بناء سورية دولة مدنية حديثة يقوم نظامها السياسي على عقد اجتماعي، ينبثق من دستور ديموقراطي، يحترم التعددية بكل آفاقها الدينية والإثنية والسياسية والفكرية، ويقوم على التداول السلمي للسلطة، ويجعل المواطنة مناطاً للحقوق والواجبات... وترحب جبهة الخلاص الوطني بكل مكونات وأطياف المجتمع السوري الطامح إلى الحرية والتغيير بالانضمام إليها والعمل ضمن إطار توافقاتها " [1] .

---

(١) كل هذه الأمثلة التي أوردناها ذكرها بيان الجماعة على طريق الحوار الوطني (٢) تحت عنوان (التكوين المجتمعي السوري والمسألة الطائفية ١٩ مارس ٢٠٠٦ آذار .

(١) راجع في هذا الموضوع كتاب " العائلة الأسدية " للكاتب (محمد السيد) طباعة "مركز أمية " ٢٠١٤

وهكذا يمضي الإخوان المسلمون في سورية باعتقادهم: أن المواطنة بمفهومها العصري هي العامل والمفهوم الأهم لجمع الناس وتوافقهم داخل الوطن .

ويصلح في هذ السياق اقتباس بعض الجمل من كتاب (رؤية الإخوان المسلمين في سورية)

" ـ إن الله عز وجل أقر التعايش بين المسلم وغير المسلم .

ـ إن قيام الأحزاب السياسية على أسس من برامج سياسية ذات أبعاد عامة أو خصوصية. وكذا الجمعيات أو التجمعات ذات الطابع الإنساني أو الاجتماعي أو البيئي، كل ذلك سيضع البنى الأساسية للمجتمع المدني الفاعل (وعينهم في ذلك على ما يسمى بالأقليات وعلى الأخص العلويين الذين كثرت الإشارات إليهم) .

ـ نؤكد أن التعددية السياسية هي حقيقة واقعة في أي تجمع إنساني، كما أنها سمة أساسية لأي دولة حديثة تسعى إلى وجود تنافسي لتحقيق مشروع حضاري عام .

ـ إن التنوع العرقي والمذهبي أوجد في قطرنا (سورية) تعايشاً حضارياً حياً، على ما فيه من تنوع واختلاف، وتشكل الشعب السوري من هؤلاء جميعاً (الأكثرية المسلمون السنة، والطوائف الأخرى: من مسيحيين كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت، ومن علويين، ودروز، وإسماعيليين، ويزيديين) في تنافس وسباق لخدمة الوطن[1].

(١) راجع كتاب سامي الجندي " كسرة خبز " وكتاب " العائلة الأسدية " حيث يثبت الكتابان بالدليل قيام حافظ الأسد بهذا الاتفاق .

ـ وترى الجماعة أن التعامل مع التنوع العرقي والطائفي يقوم على عدة مبادئ :

١ ـ احترام حرية العقيدة (لا إكراه في الدين) .

٢ ـ تعميق روح الحوار والتسامح والانفتاح على الآخر وتأكيد أن لكل طائفة الحق في الاحتفاظ بمعتقداتها الخاصة، وأن يكون لها دورها الوطني الأصيل .

٣- تعميق روح المواطنة، واعتماد مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات، وكذلك اعتماد مبدأ الكفاءة وتساوي الفرص أمام جميع المواطنين للمشاركة في مؤسسات الدولة السياسية والاقتصادية والتعليمية والعسكرية والأمنية [1].

ثانياً ـ تطبيقات ميدانية عملية :

فيما سبق من سطور وضعنا النقاط على الحروف، بشأن نظريات الإخوان المسلمين في سورية، فيما يتعلق بموضوع المواطنة والمساواة والمشاركة المجتمعية وفي صنع قرار الوطن .. وبقي أن نتكلم عن التطبيق الميداني لتلك النظريات، وهذا هو الأمر الهام وفصل الخطاب، بحيث لا يبقى سياق العمل الإخواني في حدود التنظير الهام وحسب .

---

(١) راجع كتاب الأستاذ عدنان سعد الدين " الإخوان المسلمون في سورية " مجلد ٣ صفحات ٥٧ وما بعدها وراجع لكتاب " فان دام " القيم " الصراع على سورية " بكل صفحاته .

فهل من أمثلة ميدانية، تضفي على حراك الإخوان في سورية طابعاً جاداً لتنفيذ تنظيراتهم هذه في موضوع المواطنة وعلى الأخص بشأن المكون العلوي ؟

وجواباً على ذلك نقول: نعم .. إن الأمثلة الميدانية العملية من حراك الإخوان السوريين، الدالة على قناعتهم ومصداقيتهم مع ما نظروه بشأن وحدة الوطن والمواطنين، والعمل بمفهوم المواطنة، وما يطرحه من تساوٍ في الحقوق والواجبات وتكافؤ الفرص، والشراكة الكاملة للجميع تحت شعار: " سورية لجميع أبنائها " ونعود لنؤكد: أنْ نعمْ هناك أمثلة عملية .. سنذكر منها في ورقتنا هذه ما يسند ما ذهبنا إليه من مصداقية الإخوان في طرحهم النظري، وذلك ليس على سبيل الحصر ولكنه انتقاء لأمثلة وبراهين من ميدانيات إخوانية كثيرة ومنها :

١ ـ دعت الجماعة إلى " عقد مؤتمر وطني شامل لا يستثني أحداً، ولا يلغي أحداً، يمثل كل التيارات والأطياف والطوائف والأعراق داخل الوطن وخارجه لبناء الكتلة الوطنية الصلبة، التي تتحمل العبء الوطني بكل أبعاده " كما دعت الجماعة عملياً إلى الاعتراف (من قبل المجتمعين في المؤتمر الوطني للإنقاذ) بالاعتراف بمكونات المجتمع السوري وخصوصياتها: الإثنية، والعقائدية، والمذهبية، والثقافية، والسياسية، في إطار الوحدة الوطنية " [1] .

٢ ـ قام مؤسس الجماعة العلامة الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله بالدفاع في مجلس النواب السوري عن كل مكونات

---

(١) ارجع إلى بيان الـ ٩٩ وبيان الـ ١٠٠٠ .. وانظر في أسماء الموقعين لتعلم أن الشعب السوري بأكمله كان مع دعوة الإصلاح والتغيير السلمية .

المجتمع السوري في بداية خمسينيات القرن العشرين وقد نقلنا ذلك في هذا البحث من قبل، إذ ذكرنا أنه قدم اقتراحاً للمجلس بذلك، يؤكد حق كل تلك المكونات وتساويها في الحقوق والواجبات والشراكة الوطنية الكاملة .

٣ ـ تحالف الجماعة عام ١٩٨٢م مع جميع مكونات وأطياف المجتمع السوري مشكلين (التحالف الوطني لتحرير سورية) وكذلك كان الحال والتحالف مع جميع الأطياف في مؤتمر الميثاق الوطني عام ٢٠٠٢، فضلاً عن اشتراكهم، في تجمع إعلان دمشق، الذي ضم كل المكونات المجتمعية السورية العرقية والدينية والحزبية عام ٢٠٠٥، وهذا الانضمام من الجماعة إلى كل التشكيلات الوطنية العاملة معاً على النهوض بالوطن والمواطن السوري بكل ألوانه، إنْ هو إلا دلالة عملية ميدانية على توجه عام لدى الجماعة، قناعة منها بهذا التوجه الذي بنت له هيكلاً نظرياً رائداً في المواطنة والتعامل مع الآخر الوطني، علوياً كان أم كردياً أم مسيحياً أم درزياً أم إسماعيلياً أم يزيدياً .. معتبرين أن كل تلك الألوان إنْ هي إلا جماليات في صورة الوطن السوري وخدمته، وليست أخاديد مقطعة للصورة، كما فعل آل الأسد بتعاملهم المستغل لبعض المرضى من تلك الأطياف ومنهم السني والعلوي بالذات، لبث فوضى الطائفية ومدرجاتها المقيتة .

٤ ـ دخول الجماعة في قوائم انتخابية موحدة لمجلس النواب في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين مع المواطنين المسيحيين.

٥ ـ ما كان من علاقة طيبة مع الأستاذ " فارس الخوري " وتأييد انتخابه في مجلس النواب، واختياره لرئاسة مجلس الوزراء، ودعمه في ذلك أثناء توليه المنصب ومثل ذلك حدث في مصر، إذ لم يجرؤ أحد على الخروج في جنازة الإمام البنا رحمه الله إلا الأستاذ (مكرم عبيد)، وكان الإخوان على علاقة جيدة مع الأستاذ الكبير ومع الأقباط المقربين منه .

٦ـ ونذكر بما أوردناه من قبل من دخول الجماعة بفاعلية في المجلس الوطني السوري والائتلاف الوطني السوري، وهما يجمعان ويضمان أطياف المجتمع السوري، ومنهم العلوي والكردي والمسيحي والإسماعيلي والدرزي واليزيدي، وكذلك جميع التوجهات السياسية الحزبية والخاصة، وهم بذلك برهنوا على أنهم ميدانياً مع تنظيراتهم في فهم المواطنة، وأنها عمل مشترك يتساوى فيه الجميع بخدمتهم للوطن وصنع قراره، وبالتعاون الكامل مع الآخر الوطني لإنهاض الوطن ومصلحة المواطن أياً كان لونه أو مذهبه أو اتجاهه .

ثالثاً ـ المكونات السورية ومستقبل الثورة :

إن هناك من يرمي في وجه الشعب السوري وثورته بقصة الأقليات بقصد التشويش على وحدة الشعب السوري، والتحريض على الثورة وتعطيل تقدمها، وكذلك بقصد رمي الإخوان المسلمين والحراك الإسلامي بعداوة مع مكونات الشعب السوري وتعدديته السديدة، فضلاً عن الكيد للحركة الإسلامية التي هي في رأس القائمة التي

يكنُّ لها النظام الأسديّ أشد العداء باعتبارها في مقدمة المعارضة لطغيانه، حيث إن الإخوان والحركة الإسلامية يكنون أشد العداء لمن يخترقون حقوق الإنسان في سورية علانية، ويعتدون على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي أقره العالم في منظمته الدولية، ولسنا بهذا الصدد مضطرين لإيراد تفاصيل اختراق آل الأسد في سورية لكل المواثيق الدولية فهي مدونة لدى الأمم المتحدة، ومسجلة في أرشيف كل المنظمات الدولية الخاصة بالحقوق، ومعروضة في جميع وسائل الإعلام. وما على أي إنسان إلا أن يرجع إلى تلك المذكورات، حتى يجد الهول الهائل من الانتهاكات الأسدية لكل حق من حقوق الشعب السوري، بدءاً بحق الحياة، وانتهاء بحق المرور والحركة والحصول على الوثيقة، ومروراً بحقوق المواطنة جميعها، وحتى الصدق في قول الحقيقة، واحتكار وسائل الإعلام وملؤها بالأكاذيب عن حماية النظام للأقليات، بينما الواقع والميدان يقول: إن هذه العصابة لم تكن في يوم من الأيام إلا معتدية على الأقليات وليسأل الناس " جورج صبرة " و " عارف دليلة " وزعماء الدروز ومن اغتالوهم معنوياً من الإسماعيلية سامي الجندي وغيره، وجسدياً: عبد الكريم الجندي وغيره .

الخلاصة :

إن الثورة السورية احتدم أوارها وراهن شعبها على قضايا افتقدها شعب سورية منذ خمسين سنة على يد الطغاة، ونخص بالذكر منهم آل الأسد الذين شكلوا (المافيا) الأخيرة، حيث قامت

على أسس تخريب سورية وقتل كل شيء جميل فيها، وعلى الأخص؛ التفاهم والتجانس والتعايش غير المسبوق بين مكونات هذا الشعب الكريم.

لقد حاول آل الأسد أن يدسوا أنفسهم في المكون العلوي دساً مفتعلاً مستغلين فقر هذا المكون الشعبي السوري وأحد خيوط نسيجه، من أجل تثبيت كراسيهم في الحكم، وادعاء أن لهم عزوة وتاريخاً وموقفاً محسوباً على الأرض السورية، إلا أن كثيراً من شرفاء هذا المكون لم يخرجوا عن إجماع الشعب السوري وثورته المطالبة بوحدة المكونات السورية وبالعدل والمساواة والحرية والكرامة للجميع (مشاركين في ثورة الحرية والكرامة ٢٠١١م) وهم بذلك كشفوا تآمر النظام الأسدي على وحدة وانسجام مكونات الشعب السوري، وكذلك على جغرافية الوطن السوري بالاتفاق مع الصهاينة على تسليمهم أرض الجولان مقابل الاعتراف لهم بحكم سورية.

واشتغل آل الأسد خلال حكمهم منذ عام ١٩٦٦م وحتى هذه اللحظة على بث الفرقة والشرذمة بين مكونات الشعب السوري، حيث اضطهدوا المكون السني والمكون الكردي، وحابوا المكون الدرزي تارة وأقصوه تارة أخرى .. هدموا مساجد السنة في حماة ودمشق ودرعا وحلب وغيرها، وأغاروا على المكون الدرزي في مكمنه (السويداء وشهبا) وغيرهما من مدنهم في جبل العرب. وهادنوا المكون المسيحي بعض الوقت، وجافوه أخرى، قتلوا عبد الكريم الجندي من

المكون الإسماعيلي وهو من قيادات انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣م، وأبعدوا سامي الجندي من المكون نفسه، الذي كان عضو القيادة القطرية وأحد أبرز وزراء البعث، فجعلوه سفيراً لحكمهم في فرنسا ليكون بعيداً عن سياساتهم العميلة التي انتقدها .

لم يسكت الشعب السوري على المافيا الأسدية وفسادها وإفسادها ،بل اعترض على هذه السياسات أكثر من مرة ،كان أجرأ تلك الاعتراضات ثورة الثمانينات التي قمعها النظام الأسدي بكل وحشية واستهانة بحقوق الناس، وقد سكت الغرب على جرائمهم في ذلك الوقت، نظراً لأن الأسديين دخلوا بقوة في أجندة الغرب.

وظن الناس أن شاباً جاء من جامعات الغرب سوف يغير ويبدل، إلا أنه بعد أن ثبت أقدامه لبس جلباب أبيه وعمم شعار (التغيير مع الاستمرار) ووضع في مواجهة تحرك المجتمع المدني الخطوط الحمراء التي يحاكم ويسجن من يتجاوزها ، ومن أهم تلك الخطوط: انتقاد حكم أبيه، والكلام على الأجهزة الأمنية والجيش والحزب .

وتفاقمت حالات استقطاب المكونات السورية، ومنح المكون العلوي (من الموالين والداعمين لفساد آل الأسد ، المستفيدين مالياً وهيمنة داخلية) كل الامتيازات ،مع فسحة بسيطة لمكونات أخرى (بعض المتسلقين) من سنة وكرد ودروز .. وغيرهم، وعم الفقر والخوف من البطش كل أنحاء البلاد ... إلى أن هبّ الناس بدءاً من حوران جنوب سورية ثم امتدت ثورة الحرية والكرامة مبتغية ـ بسلمية كاملة ـ الإصلاح والتغيير السلمي .

وواجه بشار الأسد وأركان نظامه دعوة الإصلاح السلمية التي اشترك فيها جميع مكونات الشعب السوري بالحديد والنار، واستمر القتل بالشعب السوري المسالم الذي ظل يخرج إلى الساحات والشوارع والقرى والبوادي يطالب، بسلمية، بحريته وكرامته متحدياً الرصاص والقنابل بصدور عارية مدة سبعة أشهر.

ومن الوسائل التي حاول النظام الأسدي استخدامها للتخذيل عن الثورة، ادعاء أن الثورة إرهابية، وأنها ضد الأقليات، وأنها تمزق الشعب، وذلك في عملية إسقاط استخدم فيها المكون العلوي السوري أبشع استخدام، إلا أن المكونات الأخرى كانت استجابتها لهذه الدعاية البائسة معدومة أو ضعيفة على الأقل، وقد وقف العديد من شخصيات المكون العلوي مع الثورة والثوار .

أما المجتمع الدولي (الغرب) فقد تجاوب نوعاً ما مع " بروبغندا " المافيا الأسدية، إذ وجدها تخدم أهدافه في التشويش على الثورة وتعويق خطاها، عندما اكتشفوا أن الثورة السورية تتوج بالحق الإسلامي المعتدل، الذي تبناه الإخوان المسلمون منذ عقود، وبنوا خطاهم العملية السلمية على ذلك منذ تأسست الجماعة عام ١٩٤٥م. ويطيب لنا هنا أن نتطرق إلى تلك الخطوات الميدانية العملية، التي خطاها الإخوان، وبرهنت على أنهم ليسوا قوّالين وحسب بل وفاعلين عمليين، ومن ذلك: تمسكهم بالثوابت الوطنية التي تبناها الشعب السوري، وشاركوا في كل الخطوات العملية لتحقيق تلك الثوابت

والتطلعات، فانضمت إلى كل التجمعات الوطنية السياسية العاملة على التغيير والإصلاح، من مثل: التحالف الوطني لإنقاذ سورية في الثمانينات، والمجلس الوطني عام ٢٠١١م، والائتلاف الوطني عام ٢٠١٢م، كما شاركوا الثوار العمل بكل أشكاله وأنواعه وشكلوا حزب (وعد) عام ٢٠١٣م انضم إليه كل فئات المجتمع السوري، ومن قبل شاركت الجماعة منذ تأسيسها عام ١٩٤٥م في انتخابات عام ١٩٤٧ و ١٩٤٩م وفي الانتخابات التكميلية ١٩٥٧م في دمشق، وأيدوا انتخاب عملاق السياسة السورية (فارس الخوري) في مجلس النواب ورئيساً لوزراء سورية.

خلاصة القول :

إن التعددية في المجتمع السوري هي مراد الإخوان المسلمين السوريين والإخوان عامة، يدعون إليها، وإلى نبذ كلمة (الأقليات) والقول بمكونات المجتمع على حد سواء، فلا إقصاء، ولا تهميش لأحد فالكل سواء مواطنون محترمون، لهم جميع الحقوق، وجميع الفرص، في مجتمع متعاون متعاضد لإعلاء الوطن، ولخدمة ناسه من كل لون .

ولكن الظالمين من حكام جاؤوا بدون إرادة الشعب، عملوا على مصطلح " فرق تسد "، فصنفوا الناس من الشعب السوري الذين

تعايشوا وتعاونوا بسلام مئات السنين، إلى فئات وأنواع، كي يظل الكرسي الذي تمسكوا به، ولو كان الطوفان، محجوزاً لهم، من خلال تخريب البلد، وخدمة أعدائه .

وأخيراً: إننا نحن الإخوان المسلمين ننادي بشعارنا: سورية لكل السوريين: مواطنون لا أقليات .

المسيحيون والثورة السورية
مواطنون لا أقلية

د. جورج صبرة (سورية)

رئيس المجلس الوطني السوري

ليس الربيع العربي الذي انطلق مع نهاية العام ٢٠١٠ حدثاً عابراً في حياة المنطقة، ولن تكون التغييرات المنشودة - التي أنجزت ويستمر الصراع من أجلها - في حياة الدول والشعوب المعنية سطحية ومؤقتة. وها هو المخاض الصعب يستمر أشد قسوة وأكثر تعقيداً بعد أربع سنوات على البدايات، ويدخل في دائرة الصراعات الإقليمية والدولية كحدث خلافي تاريخي بامتياز، مثلما يدخل سجل حقوق الإنسان كمنتج يومي لكل أنواع الجرائم والارتكابات التي عز نظيرها في التاريخ المعاصر بشاعةً وعمقاً واتساعاً. فانتفاضة الشعوب العربية من أجل الحرية والكرامة في وقائعها ومآلاتها اللاحقة، تعلن افتتاح زمن جديد طال انتظاره من تاريخ المنطقة وربما في تاريخ العالم. زمن طال انتظاره عربياً، وتعاظمت حاجة الشعوب إليه لدخول العصر، عصر الديمقراطية والحداثة والتنمية. وعلى قدر معاناة الناس من التهميش والتسلط والقهر، وحاجتهم إلى التغيير الممتدة لأكثر من

نصف قرن، تأتي التضحيات العظيمة والتصميم الاستثنائي من أجل الانتصار وبلوغ الهدف. ويبقى هذا الحدث التاريخي العظيم وارتداداته على المنطقة محكوماً بما يجري في سورية أكثر من أي مكان آخر. وكذلك مآلاته اللاحقة وما أنتجته من مخاوف ومآرب وأوهام، وبما أيقظته من أحقاد وغرائز ونزوات فردية وجماعية. بل إن مصير المنطقة ومستقبلها، سيكون رهين التفاعلات العميقة التي يفرزها هدر دم السوريين كل يوم وكل ساعة دون حساب.

ومن الطبيعي أن يكون المسيحيون في قلب هذه المعادلة الصعبة. فهم مكون أصيل في البنية التاريخية والاجتماعية والروحية في المشرق العربي، طالما كانت ثقافة الحرية والديمقراطية والحداثة من أولى أهدافهم وعلى رأس ثوابتهم الوجودية. ومن الطبيعي أيضاً أن يرتفع السؤال المر عن موقف وموقع المسيحيين العرب - وخاصة السوريين منهم - مما يجري في بلادهم وبين ظهرانيهم، خاصة وأن آلة القتل والتدمير الجهنمية تطال سوريا وطناً وشعباً وبالتالي الجميع. وأساليب الابتزاز المنفلت والتخريب المعمم والطائفية الممنهجة التي يعتمدها النظام و شبيحته وأزلامه لا تُمَكِّن أحداً من اتخاذ موقف الحياد. لكن ماهو غير طبيعي وغير مقبول أن يستعمل الخارج ورقة (المسيحية والمسيحيين) في هذه الظروف للنيل من سمعة الثورة، وصب الماء في طاحونة نظام الاستبداد والطائفية تحت دعوى زائفة كانت تسمى دائماً " حماية الأقليات "

هل المسيحيون أقلية ..؟!

سورية حسب فيليب حتي " أكبر بلد صغير على الخريطة ". فهي صغيرة في حجمها، لكنها عالمية في تأثيرها. لذلك قيل " لكل إنسان متحضر وطنان: بلده الذي ولد فيه وسورية ". فشعبها أول من نشر المبدأ القائل بأن الإنسان خلق على صورة اللّه. وإن الإنسان أخ للإنسان تحت الذات الإلهية وبرعايتها. ومن هنا وضعت أسس الحياة الديمقراطية بين الناس على قاعدة المساواة والكرامة الإنسانية. باختصار الشعب السوري " المعلم الأخلاقي للبشرية " .

وسورية من أقدم الأماكن التي ولدت على أرضها الحضارة، وترعرعت فيها وأثمرت. فعلى سواحلها اخترع الإنسان أول أبجدية للكتابة، وفي سهولها وعلى ضفاف أنهارها اكتشف الفلاحون الزراعة، وعبر صفاء سمائها أوجد السوريون صلة وطيدة بين السماء والأرض، فكانت أرضاً خصبة لبروز الديانات السماوية وانتشارها في أنحاء المعمورة .

انتشرت فيها اليهودية منذ وقت مبكر وبنيت فيها أول كنيسة للمسيحية مازالت تدق أجراسها، وتفتح أبوابها للمصلين كل يوم أحد منذ ألفين من السنين ويزيد. وعلى روابيها من الجنوب إلى الشمال ترقد أديرة وبيع " يذكر فيها اسم اللّه " تصنع أفعال الخير للمحتاجين من كل الملل والنحل ومن كل جنس ولون ولسان. وقبل خمسة عشر قرناً دخلها الإسلام، وصارت قاعدة انطلاق له على يد كوكبة من

الصحابة الأجلاء، ودوى فيها نداء " الله وأكبر " من آلاف المآذن حمداً وتسبيحاً، وتعممت على ألسنة أبنائها تحية " السلام عليكم " لتكون إرادة التواصل والحياة لصناع الحياة على أرض الشام الشريفة حتى اليوم .

كانت سورية على الدوام بلاداً فيها الكثير من الدين والقليل من الطائفية. وهذا أمر طبيعي، لأن المتدين الحقيقي لا يكون طائفياً. فمقتضيات دينه تفرض عليه ذلك. والفرق بين الدين والطائفية كالفرق بين الهواء النقي والغازات السامة. فالدين يبقى ديناً من أجل خلاص الإنسان ورسالة لتنظيم حياته وتهذيبها، عندما يتمثل في مواقع اجتماعية شعبية لتفعيل التواصل، ويعاش كصيغة تضامن واحتماء ومقاومة في وجه علاقات التسلط والاستغلال والقهر التي تنهب الناس وتهمشهم وتخرب حياتهم. ويشوه الدين ويصبح طائفياً عندما يوظف لأغراض سياسية، فيبرز ويستعمل في عملية الصراع على جهاز الدولة، ويستخدم مطية للحصول على الثروة والسلطة والاستئثار بهما. باختصار في الدين بناء وفي الطائفية هدم .

تتجاور المساجد والكنائس في سورية حتى يكاد بعضها أن يتكىء على بعض. ويتجاور المسلمون والمسيحيون في طول البلاد وعرضها، ويتقاسمون العيش في حلوه ومره عبر تاريخهم الطويل. وفي عز الخلافة الأموية عمل الراهب يوحنا الدمشقي مستشاراً إدارياً ومالياً للخليفتين عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك. وكان صوت الشاعر

العربي الأخطل، وهو نصراني، يصدح بحرية في قصور الخلفاء الأمويين وفي مجالس الأدب والفخر بالعاصمة دمشق.

ليست المسيحية عميقة الجذور وعريقة في بلاد الشام فقط، إنما في بلاد الرافدين وفي الجزيرة العربية أيضاً. وليست أسماء مثل ورقة بن نوفل وقس بن ساعدة الإيادي والراهب بحيرى إلا نموذجاً لوجوه عربية مسيحية كان لها حضور مميز في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وعرفت بعض القبائل العربية في عصر الجاهلية وصدر الإسلام بنصرانيتها، وكان على رأسها قبيلة تغلب، التي قيل فيها " لولا الإسلام لأكلت تغلب العرب ". ولم يكن مستغرباً بأي حال من الأحوال اكتشاف مواقع ولقى أثرية على الشواطئ الغربية للخليج العربي لبقايا كنائس قديمة تعود للقرنين الرابع والخامس الميلاديين قبل مجيء الإسلام. ومن أبرز الدلائل على عناق المسيحية والإسلام على أرض جزيرة العرب بل داخل البيت الحرام ذاته، ما أورده الدكتور جواد علي في كتابه المرجعي عن تلك المرحلة (تاريخ العرب قبل الإسلام) الجزء الخامس ص ١٧٢ " فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله البيت، فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب، فجاء بماء زمزم ثم أمر بثوب، فبلّ بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطمست، ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام وقال: امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدي، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه " .

وذكر المؤرخ الكبير ماسينيون في سياق تأريخه للعلاقة بين المسيحية والإسلام في بلاد العرب وقائع الحوار بين نصارى نجران

والرسول الكريم ﷺ حين قدم هؤلاء من اليمن للقاء النبي والتحاور معه بشأن الدين الجديد فقال: " وقد جاء في أخبار المؤرخين المسلمين حكاية المباهلة بين الكهنة المسيحيين النجرانيين والرسول محمد " ومن مفاخر تلك الواقعة ما رواه المؤرخون عن دخول نصارى نجران مسجد قباء، بعد أن أذن لهم الرسول بذلك، فأقاموا صلاتهم فيه، وعادوا لاستئناف الحوار. بالطبع لم يتفق الطرفان على جميع القضايا ونقاط الحوار الخلافية، لكنهم التزموا بأن " لا نتشاتم " وهذا ما كان. تكررت هذه الواقعة باتجاه آخر، عندما قدم عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس لتسلم مفاتيح المدينة، إذ دعاه البطريرك صفرونيوس – عندما أذن المؤذن – للصلاة في كنيسة القيامة، حيث يوجد قبر المسيح عيسى بن مريم. فرفض عمر أن يصلي في الكنيسة، كي لا يحاول بعضهم في المستقبل استخدام هذه الواقعة للاستيلاء على الكنيسة أو التنازع مع المسيحيين عليها.

وفي العراق بقي المسيحيون وكنائسهم بعد دخول الإسلام مثلما كانوا قبلها. يذكر الدكتور رضوان السيد " كان أبجر بن جابر زعيماً لبكر بالكوفة التي أسلمت وبقي هو مسيحياً، ولم ير أحد في ذلك غضاضة". كما يذكر بأن " المسيحيين بالشام ومصر ظلوا من الناحية العددية أكثرية خصوصاً في الريف حتى القرن الخامس الهجري ".

وإذا سأل سائل عن سر هذا التواشج بين المسيحية والإسلام في المشرق العربي في مصر وبلاد الشام والعراق وجزيرة العرب، فلابد أن نذكره بأن السر يكمن في الأسس المشتركة بين المسيحية والإسلام والتي يمكن إجمالها بما يلي:

- الاعتقاد بإله واحد خالق السماوات والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وأن وجوده يثبته العقل ويؤكده الوحي. وهنا يمكن ملاحظة التشابه في علم التوحيد المسيحي وعلم التوحيد الإسلامي.
- الله واحد حي قيوم " نؤمن بإله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والأرض.. "[1]، وفي ذلك جوهر " قل هو الله أحد، الله الصمد.. "[2].
- الله محب للبشر، ذو الغفران والرحمة، يحيي الأموات، رحيم رؤوف طويل الأناة كثير المراحم والوفاء. حميد مجيد.
- وجود الجنة والنار وبالتالي الثواب والعقاب.
- الإنسان في المسيحية والإسلام هو قلب العالم .
- الأنبياء يرسلهم الله، وهنا يوجد خلاف في معتقد النبوة بينهما. والفارق في هذا المفهوم بين الطرفين، لم يمنع من احترام كل فريق لعقيدة الآخر، ولم يحل دون تمتع أهل الكتاب بالحياة المدنية المشتركة ورعاية حقوقهم الأساسية وممارسة طقوسهم الدينية بحرية.

---

(١) مطلع دستور الإيمان المسيحي .

(٢) الصمدية الشريفة من القرآن الكريم .

تاريخ واحد ... وعيش مشترك

ليس المسيحيون غرباء أو عابرين في أرض العرب. إنهم في أرض آبائهم وأجدادهم. وهذه البلاد كانت الموطن الأول للمسيحية، ومنها خرجت إلى العالم أجمع، والبلاطات التي سار عليها بولس الرسول في شوارع دمشق، مازال الدمشقيون يسيرون عليها. وكنيسة حنانيا التي شهدت تنصر بولس الرسول صاحب الرسائل الإنجيلية المعروفة وتحوله إلى المسيحية، مازالت تدق أجراسها كل يوم أحد لتدعو المؤمنين إلى الصلاة، وتضاء فيها الشموع بأيدي الأطفال منذ قرون وقرون. ولم تخل يوماً الأديرة الكثيرة المنتشرة على القمم والوديان في أنحاء بلاد الشام من حركة الرهبان وتراتيل الراهبات، وهي مستمرة في أداء رسالتها الدينية والأخلاقية والإنسانية منذ أكثر من ألفين من السنين. والمسيحيون في هذه البلاد مثل المسلمين مغروسون في كل ذرة من تراب سورية، وتكاد لا تخلو مدينة ولا قرية ولا واد ولا جبل ،ولا ساحل ولا بادية من تجاور السوريين مسيحيين ومسلمين وتعايشهم اليومي. ويستمر إعمار سوريةوبناء معالم التحضر فيما أنتجته وتنتجه أيديهم مجتمعة من رعي الماشية إلى محراث الزراعة إلى أنوال الصناعة إلى كل الحرف والمهن والنشاطات الحديثة والمستحدثة. وقليلة هي التجمعات البشرية التي لا تعانق السماء فيها مآذن الجوامع وقباب الكنائس متجاورة ومتوحدة في مهمة فتح سبيل من الأرض إلى السماء.

لم يكن هذا التجذر والاستمرار والعمل والعطاء بفضل شجاعة المسيحيين ووطنيتهم ومواظبتهم على التمسك بالإرث الثقافي

والحضاري المسيحي والمسلم وما قبلهما على هذه الأرض فقط، إنما بفضل حكمة المسلمين وانفتاحهم على أبناء قومهم المختلفين معهم في العقيدة الدينية، تطبيقاً لتعاليم دينهم الحنيف وموجبات قيمهم الأخلاقية والإنسانية أيضاً.

ويذكر التاريخ بصفحات مضيئة وحروف من ذهب، كيف استقبل أهلنا المسلمون المسيحيين الأرمن في أيام محنتهم قبل عقود من الزمن، وكيف استوطن هؤلاء البلاد، أخذوا منها وأعطوها، وصاروا في صلب بنيتها الاجتماعية والوطنية والحضارية. فهذا الشرق منبع الديانات السماوية وخزان القيم الإنسانية الذي بنته الحضارات المتعاقبة. ساهم فيه أجدادنا على اختلاف انتماءاتهم مع الآخرين من أبناء الوطن الذين قدموا إليه وساهموا في بنائه ،وشارك الجميع في حفظه واستمراره حتى اليوم .

العلاقة بين المسيحية والإسلام قديمة قدم الرسالة الإسلامية نفسها. فقد تم أول اتصال أساسي بين الرسول الكريم محمد بن عبدالله ﷺ والنصارى العرب في بيت ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد زوجة النبي الكريم. وكان القصص القرآني المتعلق بمولد المسيح وطفولته ورسالته متداولاً في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وامتلأت دروب التواصل بين بلاد الشام والجزيرة العربية بالأديرة والرهبان والقساوسة العرب. كان منهم أساقفة حوران، وأشهرهم الراهب بحيرى الذي كشف علامات النبوة المبكرة في

الفتى محمد الذي كان برفقة عمه أبي طالب في إحدى سفراته إلى الشام، وأوصى العمَّ خيراً بابن أخيه لأنه سيكون له " شأن عظيم ". ومعروف لدى الجميع أن الأدب المسيحي العربي نطق به بالعربية الصرفة، وكتب بها منذ أكثر من ألف عام، فأبدع منها وأبدع فيها. يقول المطران جورج خضر في كينونة المسيحية الشرقية ": مسيحية هذه الديار متجسدة، تمس لحم الأرض وزمانها. إنها تحيا في دار الإسلام وتجاورها، بالأقل على مستوى الحياة، وتتأثر بها وتؤثر فيها بمقدار ".

فالاختلاف بطقوس العبادة ومراسم الصلاة بين المسلم والمسيحي لم تشكل عائقاً امام الحياة المشتركة، التي بنيت بينهما عبر قرون. يقول الباحث فكتور سحاب " الإسلام ليس ديناً فقط، إنه دين وحضارة. لا يمثل الدين سوى نسبة ضئيلة في حياة المسلم، في حين أن الإسلام كحضارة يملأ حياتنا كلها .. مزاجنا الأدبي واللغوي، توجهاتنا الأخلاقية، ميولنا الموسيقية، عمارتنا ..الخ. كلها تنتمي إلى الحضارة العربية الإسلامية. وهنا يشترك جميع أهل الشرق بذلك".

كان للمسيحيين العرب باستمرار مكان في الدولة الإسلامية .فمنذ أن حارب النصارى في جيش سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية تحت شعار "نحارب مع قومنا، فإذا انتصروا انتصرنا وإذا هزموا هزمنا" كانت وحدة المصير واضحة ومعتمدة، وتسكن داخل الوعي الجمعي للمسيحيين والمسلمين. وعلى ضوء ذلك أصر بطريرك

القدس أن يسلم مفاتيح المدينة للخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب بنفسه. واستناداً إلى ذلك رفض الخليفة أن يصلي في كنيسة القيامة كي لا يتخذها أحدهم ذريعة للتجاوز على حقوق الآخرين.

وعندما دخل خالد بن الوليد دمشق من بابها الشرقي أعطى المسيحيين أماناً " على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ". وكان المسيحيون قد فتحوا باب الجابية ليدخل منه أبو عبيدة عامر بن الجراح تعبيراً عن الأمن والاستئمان اللذين يشعرون بهما. وبعد ذلك خاطب سكانُ حمص جيشَ أبي عبيدة قائلين " لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ". وقد ذكر المؤرخون ومنهم فيليب حتي، أنه كان " من الواضح أن السوريين المسيحيين من أبناء القرن السابع قد اعتبروا العرب المسلمين أقرب إليهم عنصراً ولغة وربما ديناً أيضاً من أسيادهم البيزنطيين الممقوتين " .

زوجة معاوية بن أبي سفيان كانت مسيحية، وهي ميسون بنت بحدل من بني كلب، وقد احتفظت بدينها ،وغدت أم الخليفة الأموي الثاني يزيد. وطبيب معاوية الخاص كان نصرانياً، وهو ابن أثال، وقد عينه معاوية عاملاً على ولاية حمص. ومنصور بن سرجون كان مديراً لمالية الدولة الأموية. كما كان الأخطل شاعر البلاط الأموي يدخل على معاوية والصليب يتدلى من عنقه، وهو مسيحي من تغلب كبرى القبائل العربية المسيحية (غسان، بكر، تغلب، تنوخ) وهي قبائل عربية تنصرت. ومن يعرف أن كلمة الخليفة الأموي المقيم في دمشق

كانت هي القانون في طول هذا الملك الواسع وعرضه، يعرف أهمية هذه الروح السمحة التي أفسحت المجال لحياة مشتركة تنتج حضارة، ولن يعجب أحد بعد ذلك من مقدار مساهمة المسيحيين العرب في العطاء الإنساني للحضارة العربية الإسلامية.

ويذكر فيليب حتي في كتابه الموسوعي " تاريخ سورية ولبنان وفلسطين " إن معاوية بن أبي سفيان رمم كنيسة مسيحية في الرها، كان هدمها الزلزال. كما يقرر بحسم واضح " أخرجت سورية الأموية لاهوتياً من أعظم لاهوتيي الكنيسة الشرقية وأشهر واضعي التسابيح في شعائرها. هو يوحنا الدمشقي. وأعدت للمسيحية من أبنائها خمسة من الباباوات ".

وليس لأحد أن يتنكر للحقيقة القائلة " السوريون المسيحيون أبرز من ساهم في عملية نقل العلوم والفلسفة اليونانية، وكانت لغتهم السريانية جسراً، انتقلت بوساطته العلوم اليونانية إلى اللغة العربية " .

وفي العصر الحديث، مازجت السياسة والثقافة والاقتصاد بين السوريين ، عابرة لكل الطوائف والأديان. فولدت سورية الحديثة كدولة مستقلة تعددية ديمقراطية، تحترم كل الأديان والثقافات، وتقوم على مبدأ المواطنة المتساوية في الحقوق والواجبات. فكان إبراهيم هنانو رئيس الجمعية التأسيسية التي وضعت الدستور كردياً. وكان سلطان الأطرش قائد الثورة السورية الكبرى درزياً. وكان صالح العلي قائد ثورة الساحل علوياً. وكان فارس الخوري رئيساً

لوزراء سورية ولمجلس نوابها عدة مرات مسيحياً. وقد حصل ذلك عبر انتخابات حرة ونزيهة وبإرادة السوريين.

وقد لا يصدق أحد أن مسلمي سورية أمنوا فارس الخوري على أوقافهم، عندما سموه وزيراً للأوقاف. لكنه سيصدق عندما يرى صورة فارس الخوري، وهويقف داعماً ومسانداً إلى جانب الشيخ مصطفى السباعي المراقب العام للإخوان المسلمين في حملته الانتخابية بدمشق عام ١٩٥٥.

فعن أي أقلية تحتاج إلى حماية يتحدثون ؟ !

من معاناة الاستبداد إلى طموحات التحرر

منذ بواكير النهوض العربي بين نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، شارك المسيحيون أبناء وطنهم في طموحات الاستقلال عن الدولة العثمانية، ومقارعة الاستبداد بكل أشكاله. وكانت الجمعيات الخيرية والأحزاب السياسية والمؤتمرات الوطنية ميداناً مفتوحاً للعمل المشترك بين الجميع وفضاء لتثمير طاقات الشعب التائق للحرية وبناء الدولة الوطنية المستقلة.

في المؤتمر السوري الأول في باريس ١٩١٣ كان ميشيل لطف الله يداً بيد مع عبد الحميد الزهراوي. وعندما رد جمال باشا على طموحات السوريين بالحرية والاستقلال بموجات الإعدامات التي حصلت في بيروت ودمشق، صعد إلى المشانق بترو باولي وجرجي حداد وسعيد فاضل عقل و رفيق رزق سلوم في السادس من أيار ١٩١٦ إلى

جانب عمر حمد وعبدالغني العريسي والشيخ أحمد طبارة ورشدي الشمعة وشكري العسلي والأخوين محمد ومحمود المحمصاني وغيرهم. وقد سبق هذه الموجة من الإعدامات موجات أخرى بين ١٩١٥- ١٩١٦ ، كان من بين فرسانها: الخوري يوسف الحايك ، نخلة المطران ، الشقيقان فيليب وفريد الخازن والشقيقان أنطوان وتوفيق زريق وآخرون. وبعد وقوع سورية تحت الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ ، ورغم محاولات القوى الاستعمارية اللعب على ورقة الأقليات، ومحاولتهم تحييد المسيحيين عن الصراع الوطني ضد قوات الاحتلال، فقد كانت الجهود الوطنية المخلصة من أجل الجلاء وتحرير البلاد من الاستعمار الفرنسي ميداناً لشراكة وطنية حقيقية في كل الحقول السياسية والعسكرية والتضامنية. ففي الجهود السياسية برز فارس الخوري، وكان قائداً لها في العديد من المواقع. تشهد على ذلك منافي الوطنيين السوريين بسبب نشاطاتهم المعادية للانتداب في الحسكة وأرواد وأميون، التي ضمت عبد الرحمن الشهبندر ولطفي الحفار وفارس الخوري والعشرات من الوطنيين الكبار مسيحيين ومسلمين .

وفي الميدان العسكري خلال الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥- ١٩٢٧ ، برزت أقوال وأعمال عقلة القطامي (١٨٨٩- ١٩٥٣)، الذي كان صديقاً لقائد الثورة سلطان الأطرش، وملازماً له في كل المواقع، إذ عمل رئيساً لأركان الثوار .

ولد عقلة بن سحوم أبو موسى القطامي في قرية خربة بمحافظة السويداء. صار عضواً في مجلس قيادة الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥.

وعندما هزمت الثورة واضطر قادتها لمغادرة سورية إلى المنفى في وادي السرحان جنوبي الأردن ١٩٢٧، كان بينهم لصيقاً بقائد الثورة. وبقي معهم هناك إلى عام ١٩٣٧، عندما عاد إلى دمشق برفقة قائد الثورة، ليصبح عضواً في المجلس النيابي (١٩٤٣- ١٩٤٧). صرخ عقلة القطامي يوماً في وجه غورو جنرال الاحتلال الفرنسي: " إن الدماء التي تجري في عروقنا ليست فرنسية ولا بريطانية، إنها عربية المنبع ". وعندما قال له القاضي الفرنسي أثناء محاكمته :" أنا أفهم أن يقاتلنا هؤلاء المسلمون، ولكن لماذا أنت، ونحن مسيحيون مثلك. أجابه الشيخ القطامي: "نعم ولكني أحاربكم كعربي من بني غسان".

بناء الدولة الاستقلالية

شراكة وطنية ودور مميز

منذ بداية الأربعينيّات من القرن الماضي، حيث بدأت أعمال ونشاطات تنفيذ معاهدة الجلاء (١٩٣٦)، كان المسيحيون السوريون في قلب هذه الوقائع والأحداث. حيث شارك فارس الخوري في إعداد الوثائق كعضو في الوفد الوطني الذي أمضى شهوراً عديدة في باريس لإنجاز اتفاقية الاستقلال الوطني في سوريا وتنفيذ جلاء قوات الانتداب عن أرضها. وعندما تم ذلك في السابع عشر من نيسان ١٩٤٦ بخروج آخر جندي فرنسي عن الأراضي السورية، نعمت البلاد السورية بالحرية والاستقلال، وبدأ السوريون على اختلاف انتماءاتهم بالعمل على بناء الدولة الوطنية السورية المستقلة كجمهورية برلمانية تعددية،

تنعم بالحياة الدستورية والانتخابات الحرة والنزيهة والحريات العامة والخاصة في ظل سيادة القانون. وكان للمسيحيين دور بارز ومميز في هذه الإنجازات بالاستناد إلى أسبقيتهم في الحصول على فرص التحصيل العلمي والثقافي عبر الدراسة في معاهد استنبول وجامعات باريس وبيروت ودمشق قبل أقرانهم من السوريين الآخرين. وقد أحسنوا في توظيف هذه الميزة، ووضعها في خدمة شعبهم ووطنهم.

كانت الفترة (١٩٥٤- ١٩٥٨) في سورية ذروة الانتعاش السياسي والاقتصادي والثقافي الحر في الدولة السورية حديثة الاستقلال. ويتذكرها السوريون ويذكرها التاريخ السوري بكثير من الحنان والاحترام والافتخار، لما أنجزه جيل الاستقلال في صرح الدولة الوطنية الحديثة، رغم كل أوجه القصور والمثالب التي شابتها. وقد أتاحت تلك المرحلة التي فتحت باب المشاركة لجميع السوريين على اختلاف انتماءاتهم الدينية والإثنية والطائفية فرصاً متكافئة للنمو والتأثير والعمل في الخدمة العامة ومؤسسات الدولة، تأسيساً على مشاركتهم في النضال الوطني من أجل التحرر والاستقلال.

وقد برزت أسماء أسر وشخصيات مسيحية في مختلف جوانب الحياة والفعاليات وبأدوار ريادية مميزة، ساهمت في كل مظاهر التقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في المجتمع والدولة السوريين. فكان آل غناجة وشلهوب ومعلوف وكبريتة وحداد والخوري ومقدسي وأصفر ونجار نماذج للأسر التي عملت على تنمية

الاقتصاد السوري بقطاعاته الصناعية والتجارية والزراعية في مختلف أنحاء البلاد. مثلما برزت أسماء هامة في مؤسسات الدولة وإداراتها المختلفة من القضاء إلى التعليم إلى الثقافة من أمثال: خليل أبو حمد، حنين عنحوري، حبيب كحالة، فؤاد الشايب، أنطون مقدسي.

وفي حقل العمل النسائي برزت أسماء ماري عجمي، مريانا المراش، وردة اليازجي، كرجية حداد. وفي الحقل السياسي برزت أسماء عديدة نذكر منها: ميخائيل اليان، ليون زمريا، رزق الله انطاكي، خليل كلاس، سعيد اسحق، وغيرهم. غير أن المثل الأبرز والأشهر لهؤلاء كان فارس الخوري الذي سمي " الزعيم "، وكان في قلب المعادلة الوطنية السورية كأحد الفاعلين والموجهين فيها منذ الثورة العربية الكبرى وحتى إنجاز الجلاء وبناء الدولة المستقلة. فقد اعتقلته السلطات الفرنسية عام ١٩٢٥ ونفته إلى جزيرة أرواد. كما تعرض للنفي بعدها عدة مرات بصحبة الوطنيين السوريين الآخرين في محاولة لكبح تأثيرهم على مقارعة الاحتلال الفرنسي للبلاد.

أسس مع الزعيم الوطني الكبير عبد الرحمن الشهبندر حزب الشعب في بداية العشرينيات، وشارك بتأسيس وقيادة الكتلة الوطنية وكان نائباً لرئيسها. وكونه مسيحياً لم يحل دون وصوله إلى أعلى المناصب والمسؤوليات السياسية في الدولة. فمن نقيب لمحامي سورية إلى منصب وزاري هام في معظم الوزارات الوطنية إلى رئاسة الحكومة السورية أربع مرات بين (١٩٤٤- ١٩٥٤)، ورئيساً لمجلس النواب

ثلاث مرات (١٩٣٦- ١٩٤٣). شارك باسم سورية في صياغة برتوكول الاسكندرية وتأسيس جامعة الدول العربية، وكذلك شارك في صياغة برتوكول سان فرانسيسكو وتأسيس هيئة الأمم المتحدة، وترأس مجلس الأمن الدولي كرئيس للوفد السوري في المنظمة الدولية عام ١٩٤٧. حيث كان نصيراً قوياً للقضية الفلسطينية ومن أقواله المأثورة " قضية فلسطين لاتحل في أروقة مجلس الأمن، ولكنها تحل على ثرى فلسطين ". وهذا ما فعلته وتفعله الأجيال الفلسطينية اللاحقة.

إن تجربة فارس الخوري في إطار الدولة السورية، تثبت بما لا يبقي مجالاً للشك بأن المسيحيين لم يعتبروا أنفسهم في سورية أقلية، كما أن شركاءهم في الوطن المسلمين من مختلف الطوائف لم يكونوا ليعتبرونهم كذلك. فالحقوق هي الحقوق الواحدة للجميع. والمسؤوليات هي المسؤوليات المشتركة المترتبة على الجميع. فالقاعدة هي مبدأ المواطنة الذي يلغي أي تأثير وتأثر بمفهوم الأقلية والأكثرية في إطار الدولة الحديثة.

وكي تضاء الصورة من جميع جوانبها لابد من نبذة عن سيرة وأعمال كبير رجال الكنيسة الأرثوذكسية من خلال علاقته وعلاقة الكنيسة مع المسلمين في كل من الدولة والمجتمع. إنه غريغوريوس حداد بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس. ووفق شهادة محمد كرد علي فقد "فتحت البطركية الأرثوذكسية في

دمشق أبوابها لإطعام الجياع بغض النظر عن الدين والمذهب حتى منهم الوافدون من بيروت ". تم ذلك حين وقعت المجاعة في بلاد الشام خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨). ويذكر كرد علي أن البطريرك قاد المسيحيين إلى جانب الشريف حسين وابنه فيصل في الثورة العربية الكبرى وودع الملك فيصل في محطة القدم ١٩٢٠بدمشق قائلاً له: " هذه اليد التي بايعتك ستبقى وفية لك إلى الأبد ، فحاول فيصل تقبيلها ، لكن البطريرك سحب يده وقبله في جبينه ". وتذكر المراجع التاريخية للقرن العشرين ،أن البطريرك حداد قدم المعونات أثناء الثورة السورية ، وفتح أبواب البطريركية والكنائس للعائلات المنكوبة وللثوار في الغوطة بعد قصف أحياء الميدان والشاغور والحريقة وقرى المليحة وجرمانا أثناء الثورة ١٩٢٥ ، واستقدم أبناء شهداء الثورة وتكفل بتعليمهم في الثانوية البطريركية في دمشق (الآسية) حتى تخرجوا فيها. ويذكر علامة سورية الشيخ بدر الدين الحسني أن" خمسين ألف مسلم شارك في تشييع البطريرك عند وفاته عام ١٩٢٨ ، وأراد المسلمون الصلاة عليه في الجامع الأموي، وهتفت الجماهير في جنازته " مات أبو الفقير بطريرك النصارى وإمام المسلمين، نزلت بالعرب الكارثة العظمى ". وسجل له تاريخ الوطنية السورية مأثرة كبرى عندما رفض مقابلة الجنرال غورو قائد جيش الغزو الفرنسي لبلاد الشام ١٩٢٠. من أقواله المأثورة " إن الله أعطانا الخبز لنأكله دون نظر إلى مللنا وأجناسنا فلنبذله للجميع ". " إني

أحب أبناء وطني من جميع المذاهب على السواء. . أولسنا نحن والمسلمون توحدنا جامعة الانتساب إلى أرض واحدة ووطن واحد ؟ أولسنا نعبد إلهاً واحداً غير متجزىء؟"

لقد أعطى الرجل شعبه ووطنه ما يجب، وما يليق بمواطن مخلص ووطن عظيم وبادله الوطن والشعب وفاء بوفاء، لا يبليه الزمن، ولا تذهب به السنون إلى النسيان.

في ظل النظام الديمقراطي وفضاء الحريات الذي ساد بعد الاستقلال ١٩٤٦ انتعشت الحياة العامة، وفتح الباب أمام مشاركة السوريين في إدارة شؤون حياتهم. فبعد تحقق إرادة السوريين في الاستقلال، تحققت إرادتهم في بناء الدولة المدنية الديمقراطية وطناً حراً لكل أبنائها. ولم تستطع فترة تسلط العسكريين الطامحين إلى السلطة (١٩٤٩- ١٩٥٤) أن تشوه هذه الحقيقة أو تلغيها. خاصة أن نهاية الحكم العسكري كانت على يد الشعب والقوى السياسية والاجتماعية التي تعاضدت ضد الديكتاتورية، ونجحت في إعادة الحياة الدستورية والحكم المدني إلى سورية عام ١٩٥٤. وكانت الأعوام التالية أعوام ازدهار لجميع السوريين. وقد لعب المسيحيون منهم في كل المجالات دوراً بالغ الأهمية أكبر مما ينتجه أو يستحقه وجودهم العددي في الجمهورية السورية الناشئة. كان ذلك بفضل نشاطهم وكفاءتهم وانخراطهم في المشروع الوطني بقوة من جهة، وبفضل ترحيب المسلمين واقتناعهم بأهمية هذا الدور واستحقاق

شركائهم في الوطن له، خارج أي تفكير بأقلية وأكثرية وبعيداً عن أي تمايز أو تمييز على أساس ديني أو طائفي من جهة أخرى. ففي عام ١٩٤٥، كان جميع الأمناء العامين في الوزرات السورية من المسيحيين، ما عدا أمين عام وزارة الدفاع وهو أحمد اللحام، إذ كانت الكفاءة هي المعيار .

لم يكن المسلمون بعقلية الأكثرية، ولا تصرفوا كذلك. ولم يكن المسيحيون بعقلية الأقلية، ولم يشعروا بذلك أيضاً. كان الوطنيون السوريون هم الأكثرية الساحقة. ونذكر هنا أن الحكومة الأولى بعد الجلاء في نيسان ١٩٤٦ برئاسة سعد الله الجابري كان ربع أعضائها من المسيحيين، إذ تشكلت من ثمانية وزراء منهم مسيحيان

وكان ذلك مصداقاً لمقولة الدكتور برهان غليون " التعددية الدينية ليست المشكلة، إنما غياب الطابع الوطني الحقيقي للدولة ". ففي سورية ١٦ طائفة يشكل المسيحيون أقل من ١٠٪ من عدد السكان. وبالتالي فإن الاستنتاج الحقيقي الذي تستدعيه تجربة الخمسينيات في سورية بأن النظام الديمقراطي وحده من يحقق وجود المسيحيين اللائق على أرضهم في الشرق، وبه وحده يمكن أن تتفتح لهم أبواب المشاركة في بناء بلدهم، ويتحقق لهم الحضور الفاعل في كل من الدولة والمجتمع. وفي الوقت نفسه يمكنهم من إنجاز إضافة نوعية ومشاركة في العمل الوطني العام السياسي والاجتماعي والاقتصادي المشترك لتنمية البلاد والارتقاء بها. وتشير الإحصاءات في سورية قبل دخولها دولة الوحدة مع مصر ١٩٥٨ (الجمهورية العربية

المتحدة)، إلى أنه لم يكن على الدولة السورية أي ديون خارجية، وكانت تتمتع بميزان تجاري رابح. كما تمتعت الليرة السورية بقيمة شرائية عالية قياساً بالعملات المحلية في المنطقة، إضافة إلى الحضور السياسي المتعدد والعلني، حيث كانت الحياة الحزبية منظمة وفاعلة وتوفر العنصر الأساسي للأمن والاستقرار والسلم الأهلي. كما كانت الصحافة حرة ومتوافرة بعشرات الصحف والمجلات، ليس في دمشق فقط إنما في أكثر المدن الأخرى (حلب - حمص- حماة- دير الزور- اللاذقية - السَّلمية). وكانت الشروط متوافرة في حرية التعبير لجميع الاتجاهات السياسية والفكرية والثقافية، وتمر البلاد في حالة من الاندماج الوطني الصاعد نحو بناء الدولة، التي ترتكز على المواطن الفرد بغض النظر عن انتماءاته الأخرى بل بالرغم منها. وجاء دستور ١٩٥٠ خالياً من عبارة " الإسلام دين الدولة "، وكان ذلك بمساهمة مباشرة من الشيخ مصطفى السباعي المراقب العام للإخوان المسلمين في ذلك الوقت، حيث كان عضواً في لجنة الدستور، ونائب رئيس في البرلمان.

من هنا يمكن أن نفهم احترام الآلية الدستورية لانتقال السلطة التي صارت محترمة ومقدسة من قبل النخب السياسية، حين سلم هاشم الأتاسي الرئيس السوري ١٩٥٢أعلى سلطة في البلاد لمواطنه السوري سعيد إسحق نائب رئيس مجلس النواب، بعد أن شغر موقع رئيس الحكومة ورئيس مجلس النواب، ولم يتساءل الزعيم الوطني الكبير هاشم الأتاسي، كما لم يتساءل السوريون عن دين سعيد

إسحق ومذهبه، إن كان مسلماً أو مسيحياً، وقد كان مسيحياً بالفعل، وتسلم مهمات رئاسة الجمهورية. إنها شهادة للسوريين جميعاً وللدولة السورية الناشئة، تدعو إلى الفخر والاعتزاز وشهادة للحياة الدستورية وسيادة القانون والارتقاء الحقيقي في بناء دولة المواطنة. لكنها قبل هذا وذاك شهادة للمسلمين السوريين، الذين ارتقوا فوق كل الحساسيات، وتواثقوا مع شركائهم من كل الأديان والمذاهب والطوائف على بناء الوطن، وأخلصوا لهذا التواثق قولاً وعملاً. فأن تكون سورياً هو الأهم في البداية وفي النهاية. هؤلاء أجدادنا، وتلك سورية التي نحب.

ليل الدولة الأمنية الطويل

باطمئنان كبير يمكن للمرء أن يحدد انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣ حيث فرضت الأحكام العرفية على سورية زمناً لبداية ليل الدولة الأمنية الطويل، التي مرت بمراحل من التصاعد في العنف بمواجهة المجتمع، إلى أن وصلت إلى النظام الأمني الشامل الفئوي والطائفي الذي بناه حافظ الأسد بدءاً من ١٦ تشرين الأول ١٩٧٠، وأحكم - عبره - الضبط والربط لجميع مفاصل الدولة والمجتمع. دون أن نهمل دور " النظام المخابراتي " الذي أسسه عبد الحميد السراج في " الإقليم الشمالي " من دولة الوحدة " الجمهورية العربية المتحدة " الذي كان " يحصي على الناس أنفاسهم "، وأورث البلاد السمعة السيئة لسجن المزة، وقتل السجناء السياسيين في زنازينهم تحت التعذيب، ومحاولة

إخفاء معالم الجريمة بتذويب الضحايا بالأسيد كما حصل في حالة فرج الله الحلو.

بدأ نظام الدولة الأمنية بإلغاء الحياة السياسية عبر حل الأحزاب، ثم تحريم وتجريم أي نشاط سياسي أو عمل عام، وصل إلى حد اعتقال ومحاكمة شباب داريا عندما حاولوا تنشيط الحياة العامة عبر محاربة الفساد والعمل على تنظيف مدينتهم وتجميلها. ثم سلط الأجهزة الأمنية المتعددة التي بلغت أكثر من ١٨ جهازاً مركزياً، تتوزع فروعها ومفارزها الكثيرة، في جميع المحافظات والمناطق والنواحي، إضافة إلى زرع عيونها في جميع مفاصل الدولة والمجتمع بما فيها المؤسسات الدينية لجميع الأديان والطوائف. وبلغت بها أساليب الهيمنة والتسلط أن صارت ترسل خطب الجمعة وعظات الأحد إلى المساجد والكنائس مكتوبة ومنقحة من " قسم الأديان " في كل فرع من الفروع الأمنية. وصار المساعد في الفرع مرجعية للمرجعيات الدينية في دور الإفتاء والبطركيات، يشير إلى المسموح والممنوع من آراء ونشاطات وأعمال. تساوت في عملية الإخضاع هذه جميع المؤسسات الدينية المسيحية والإسلامية. كما تساوت في نجاح الأجهزة الأمنية في اختراق هذه المؤسسات وتوظيف العديد من رجال الدين والعاملين في تلك المؤسسات كمخبرين للأجهزة الأمنية، برزت أدوارهم الخطيرة خلال الثورة. وكما خضع الجامع والجمعيات الإسلامية لكل أشكال المراقبة والمحاسبة والإخضاع الطوعي أو القسري، كذلك كانت الكنيسة

والجمعيات المسيحية ميداناً لنفس المعاملة ونفس الأساليب، وإن كانت بوتائر مختلفة وشروط متباينة بهذا القدر أو ذاك. غير أن الجوهر بقي واحداً وهو عملية إخضاع ممنهج للشعب السوري بغض النظر عن الانتماءات، من أجل تأمين الاستقرار والاستمرار لدولة التسلط والفساد الفئوية .

كان المسيحيون مثل مواطنيهم المسلمين شركاء في المعاناة وضحايا العسف من الموت تحت التعذيب في الأقبية والزنازين (فرج الله الحلو - منير فرنسيس - إميل نصور - عقل قربان) إلى الاستشهاد على أرض الثورة وأرضيتها (باسل شحادة). وكما غصت السجون والمعتقلات بعشرات الآلاف من السوريين المسلمين في سجون المزة والقلعة والشيخ حسن وعدرا وصيدنايا وتدمر وسجون المخابرات العامة، وأمن الدولة، والمخابرات العسكرية، والجوية، وسرايا الدفاع، والسجون المركزية في المحافظات، كذلك غصت بآلاف من السوريين المسيحيين الذين قاسموا مواطنيهم شهوة الحرية وغصة السجن وسوط الجلاد. وكذلك فعلت المحاكم والأحكام الجائرة التي أصدرتها المحاكم الاستثنائية من محكمة أمن الدولة العليا إلى محكمة الإرهاب مروراً بمحاكم الجنايات المتعددة، فقد ضمت أقفاص الاتهام فيها نخبة من أحرار البلاد مسلمين ومسيحيين، حفظ المجتمع السوري أسماءهم عن ظهر قلب، مناضلين من أجل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان. دون أن نهمل المساواة في صنوف

الاضطهاد الأخرى كالنقل من العمل إلى أماكن أخرى أو الفصل التعسفي من الوظيفة والمنع من السفر. حتى في أحداث حماة (١٩٨٢) والمجازر الرعيبة الرهيبة التي شهدتها المدينة، أخذ المسيحيون قسطهم من أعمال التنكيل والإجرام والقتل التي قام بها النظام، ولم يشفع لهم أنهم مسيحيون، ولا تم استثناؤهم من العسف، لأنهم كانوا حموين في المقام الأول. هكذا كانوا وهكذا اعتبرهم النظام .

وخلال الأعوام (٢٠٠٠- ٢٠١٠)، حيث العقد الذي شهد ذروة الحراك السياسي والثقافي السوري من أجل التغيير الوطني الديمقراطي. وانطلقت التحركات السياسية المعارضة، والنشاط الثقافي عبر المنتديات ومنظمات المجتمع المدني، والحراك في مجال الدفاع عن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان للدفاع عن المعتقلين السياسيين، برزت أسماء عديدة من المسيحيين في صفوف قادة الرأي والنشطاء، ممن كانت لهم أدوار ومواقف ريادية في صدارة مشهد المعارضة السورية على الصعد السياسية والثقافية والقانونية والنشاطات الميدانية عشية الثورة. فقد كانت الظلامات التاريخية واحدة، والطموحات والأهداف في بناء سورية الجديدة واحدة أيضاً. لذلك جاءت النشاطات والفعاليات والأعمال مشتركة بعيداً عن الأقليات والأكثريات. فقضايا الوطن والإنسان لا تعترف بالتمايز الديني والتصنيف الطائفي.

في مسار الثورة

في إرهاصات الثورة التي سبقت انطلاقها بأيام وأسابيع كان المشهد سورياً خالصاً. فالاعتصام أمام وزارة الداخلية ١٦ /٣/ ٢٠١١ شارك فيه النشطاء من مختلف الطوائف، وذهبت إلى السجن نتيجة ذلك سيرين خوري مع سهير الأتاسي برفقة ثلاثين من النشطاء الآخرين. وهكذا كان في التظاهرة الاجتماعية في حي الحريقة الدمشقي ٢٠١١/٢/١٧، عندما هتف المحتشدون في ذلك التجمع العفوي من كل الطوائف " حرامية ..حرامية "، و " الشعب السوري ما بينذل ". وحصل الشيء نفسه في انطلاق المظاهرة الأولى (التجريبية) التي انطلقت من الجامع الأموي في ١٥ /٣/ ٢٠١١، حين خرج شباب وشابات منهم المسيحيون والمسلمون السنة والدروز والعلويون من الجامع الأموي بدمشق، وشقوا طريقهم عبر سوق الحميدية، قبل أن تداهمهم وتفرق صفوفهم قوات الأمن في قلب العاصمة. وكان في ذلك إشارة واضحة إلى أن الربيع العربي حط رحاله في عاصمة الأمويين.

من الطبيعي أن تصبح أول تظاهرة شعبية، دشنت ولادة الثورة السورية بانطلاقها من الجامع العمري في درعا ٢٠١١/٣/١٨ نموذجاً ومثالاً يحتذى في المظاهرات اللاحقة في مختلف المدن والقرى السورية. فالمساجد هي المكان الوحيد المتبقي حيث يتكمن الناس من إيجاد حيز خاص لهم. يتجمعون فيه ويتداولون وينطلقون ولو بهامش ضيق من الحرية .لقد بقي المكان الوحيد الذي لم يتمكن النظام من احتلاله كاملاً. إذ

بقيت الجوامع والمساجد مكاناً للتعبير عن الجماعة، ليس تعبيراً دينياً فقط كمركز للعبادة، لكن أيضاً تعبيراً سياسياً وثقافياً واجتماعياً. فهو مركز التجمع للمقاومة، ومركز اللقاء والمكتبة، وملتقى الهيئة المثقفة مع جمهورها. كل الثورات والحركات الإصلاحية في الدول العربية خرجت من الجوامع والزوايا (المهدية– السنوسية – الوهابية...) .

وفي العديد من الأماكن والحالات كان الشباب المسيحي المنخرط في فعاليات الثورة، يشاركون زملاءهم المسلمين في ارتياد المساجد وإقامة الصلاة بانتظار نداء " الله أكبر " الذي سينطلق من إحدى الزوايا أو من وراء أحد الأعمدة مشيراً إلى لحظة التحرك للانقضاض على الخطيب المنافق وإسكاته، ثم التجمع والخروج في المظاهرة. (وبكل فخر أقول إن ابني كان واحداً من هؤلاء الشباب). وعندما صارت المظاهرات السلمية فعالية أسبوعية يحملها يوم الجمعة، صار الجميع بانتظارها، لأنها كانت مثل حلم مستحيل، أصبح واقعاً لا يصدق. ويذكر الجميع أن أحياء المسيحيين التي تمر بها المظاهرات كانت ترش الورود على المتظاهرين أو تفتح الأبواب لتخرج للمتظاهرين الماء البارد، معلنة تأييداً ومباركة لا تخلوان من الخوف والتردد. وعندما تمر مواكب تشييع الشهداء أمام الكنائس، كانت الكنائس تدق أجراسها دقة حزن معروفة في الطقوس الجنائزية المسيحية، في إشارة واضحة إلى نوع من المشاركة الأخلاقية والوطنية والإنسانية في حدث عام، يهم الجميع ويتمنون له النجاح

والانتصار. وكانت مواكب التشييع مثل أمسيات التعزية ميداناً للمشاركة الوطنية، حيث توافر التعدد الديني والطائفي. وقد أحيت مدن ريف دمشق: داريا – عربين – الزبداني – قطنا – جديدة عرطوز- دوما – الكسوة – معضمية الشام، مناسبات شهدائها بمشاركة وطنية عابرة للأديان والطوائف، على اعتبار الشهيد شهيد الوطن والقضية قضية الجميع. غير أنه من الواضح أن بعض الأخطاء التي ارتكبت عمداً أو عرضاً من قبل أطراف في الثورة، والحملة الإعلامية المنظمة والهادفة التي أطلقها النظام وجوقته الإقليمية والدولية للرأي العام المسيحي من أجل تخويفه وتحييده، كان لها أثر واضح في الانتظارية والسلبية التي وسمت موقف المسيحين من الثورة شعبياً. ويبقى موقف الكنيسة وتصريحات أساقفتها الكبار صاحب الأثر الأكبر في ذلك.

ومن الطبيعي أن يثير ارتباك المسيحيين في مواجهة هذا الحدث الكبير الذي هز المنطقة، ووضع نفسه بجدارة واستحقاق على طاولة مراكز الأبحاث العلمية وأصحاب القرارات الدولية تساؤلات مريرة ومشروعة وحوارات وأبحاثاً مطلوبة لاستجلاء أسباب تردد المسيحيين بالانخراط في ثورات بلدانهم أو التعاطي الخجول مع مجرياتها، وهم مكون أصيل في البنية التاريخية والاجتماعية والروحية في المشرق العربي، طالما كانت ثقافة الحرية والثورة والديمقراطية والحداثة من أولى أهدافهم وعلى رأس ثوابتهم.

موقف الكنيسة كما عبر عنه أساقفتها الكبار وأصحاب الغبطة من البطاركة أعلن انحيازاً غير مبرر للنظم الديكتاتورية، أوفي أفضل الأحوال تعويماً لسلطات القمع والاستبداد والفساد، التي أنتجت خراباً في مختلف المجالات، كان المسيحيون من أول ضحاياه. أما ما فعله بعض المطارنة ورجال الكهنوت الآخرين في دعم نظم القتل والتدمير والإجرام عبر الاشتراك في مسيرات تأييدها أو التصريحات التي أطلقت لمباركة أقوالها وأفعالها وتكريس مناسباتها، فقد كانت أعمق أثراً وأشد إيلاماً على نفوس الشباب الثائر عموماً وعلى رعية الكنيسة على وجه الخصوص. مثلما جاء غريباًعن روح الرسالة المسيحية الإنسانية والكونية، وخارجاً عن السياق الواقعي المشهود الذي جرت عليه الكنيسة المشرقية في تاريخها الطويل من الاندماج مع شعبها وقضاياها.

أما مواقف العلمانيين (العلماني بالمفهوم الكنسي هو ابن الشعب من غير أعضاء الإكليروس). فقد اتسم بالحيرة والتردد بين نزوع طبيعي ومصلحة واضحة في مشاركة أبناء الوطن بأهدافهم وتحركاتهم، وبين موقف انتظاري اعتمدته الكنيسة وعبر عنه سلوك رجالاتها. يكبح توجهات كهذه، ويثير مخاوف من نتائجها. وهو موقف غير مفهوم مسيحياً ولا وطنياً ولا إنسانياً. فسادت الاستنسابية في المواقف والتصرفات.

ففي حين اضطلعت النخب الثقافية والسياسية المعارضة وقطاع من الشباب بدور فعال في جميع نشاطات الثورة وفعالياتها مشاركة شعبها شرف الانتفاض والثورة، اكتفت القطاعات الشعبية بالقيام ببعض الواجبات الاجتماعية والإنسانية بخوف وتردد ظاهرين. بينما جاء السلوك الأسوأ من أولئك الذين اتخذوا مواقف معادية من الثورة ومن أبناء الكنيسة الآخرين الذين انحازوا إليها ووقفوا إلى جانب شعبهم في صفوفها. كانت مواقف هؤلاء وسلوكهم أكثر إيلاماً وأشد انحطاطاً وترديا من سلوك رجال السلطة وجلاوزتها. وقام البعض منهم بسلوك عدائي ورخيص عندما تصرفوا كردیف لأجهزة القمع، يزيفون الحقائق، وينشرون الدعايات الكاذبة، ويقدمون التقارير ويقومون بالافتراء والإدلاء بشهادات مزورة، ويدلون على المتظاهرين والمطلوبين، ويساعدون في ملاحقتهم والقبض عليهم، وأخيراً التطوع والانخراط - بإرادة أو بإحراج - في فرق الشبيحة التي أسسها النظام " الجيش الوطني "، واضعين أنفسهم في مواجهة الشعب مثل كثيرين غيرهم من أبناء الطوائف الأخرى.

كان موقف الكنيسة (على اختلاف المذاهب) ملتبساً وفي المقلب الآخر من رؤية المسيحية لقضية الحرية والموقف إزاءها، ولأنه لا يتسق مع تاريخ المسيحية الشرقية والسيرة الوطنية لكنيستنا منذ يوحنا الذهبي الفم، ولا يتطابق مع جوهر وجود المسيحية في البلاد التي ولدت فيها وانطلقت منها، ولا يراعي مصلحة المسيحيين

كمواطنين يشتركون مع أبناء وطنهم في مسؤولية إدارة الحاضر وبناء المستقبل. فقد استحضر هذا القدر من الاهتمام، واستوجب هذا القدر من الصراحة والنقد، ليس من أجل الثورة ومصيرها، بقدر ما هو من أجل المسيحيين أنفسهم واستمرار دورهم في البناء الوطني لبلدانهم. وهل يكفي التباكي على هجرة المسيحيين من الشرق والخوف الكلامي على مصيرهم، وهو ما يكتفي بعض رجال الكهنوت بالمناداة به ليل نهار ؟ وأين هو دور الكنيسة في تجذير المسيحية المشرقية على أرضها بالفعل ؟ وكيف يمكن أن يتم ذلك خارج إطار الاندماج الوطني والمشاركة في صناعة التاريخ ؟

المخاوف والمآرب الصغيرة والأوهام هي التي حكمت موقف الكنيسة ورعيتها من الثورات العربية. فقد أثار النظام والإعلام الغربي في صفوفهم خوفاً مفتعلاً من الإسلام والمسلمين– باستذكار ما حدث في بعض الأماكن خارج سورية - متخذين بعض الأقوال والأفعال للمتطرفين الغرباء الذين استدعاهم عنف النظام وصمت المجتمع الدولي وأجهزة مخابرات النظام وحلفائه ذريعة للاختباء وراء أمن موهوم يمكن أن يوفره النظام. بينما ينفي التاريخ الوطني الطويل لسورية ما يدعون. فالمسلمون أنفسهم لا يقبلون التطرف وستكون البلاد كلها والشعب كله بالمرصاد لأي تطرف أو إرهاب مهما كان مصدره وكائناً من كان مفتعله. لقد أثبت السوريون بالفعل ذلك، عندما تظاهرت الرقة وإدلب ضد وجود داعش على أراضيهما، وقامت

منظمات العلماء المسلمين وجمعياتهم برفضها وتحريم الانتساب إليها، وقام الجيش الحر بمحاربتها في الميدان، وواجهتها القوى السياسية على غير صعيد. فالإسلام نفسه كدين ورسالة ومنظومة قيم، يرفض التطرف، ويمنع انتهاك حقوق الآخرين. وما بين المسيحي والمسلم من أخوة في العروبة واشتراك في المصير عصي على التجاهل والتشويه والنسيان. ولنا في تجربتنا التاريخية في سورية، ومن عيشنا المشترك لقرون طويلة خير مثال، يدحض ادعاءات السلطة والمغرضين. فالنظام هو الذي يقهر المسيحي وغير المسيحي في الوقت نفسه. فمن قصف الكنائس في حمص هو نفسه من هدم الجوامع في حمص ودرعا وحلب ودير الزور. والذي قتل حمزة الخطيب هو الذي قتل باسل شحادة. ويبقى صوت الأب اسبيريدون طنوس وسيرة الراهب باولو داليلو في قلب الثورة منذ اليوم الأول لانطلاقها، والأب فرنسيس فاندرلاختفي صموده وتضحيته في قلب حمص المحاصرة مع الثوار حتى اليوم الأخير من حياته، النموذج الأبرز والأبهى للصوت المسيحي الديمقراطي والتضحيات المسيحية من أجل الحرية والكرامة في إطار ثورة السوريين المستمرة حتى النصر.

أغنية الشيطان الدولية

" حماية الأقليات " شعار يظهر ويغيب في أدبيات السياسة الدولية في الشرق الأوسط منذ قرون. ترفعه القوى الكبرى التي تريد الهيمنة على المنطقة مستغلة تنوعها الاثني والديني والمذهبي وتعدد الاتجاهات الفكرية والسياسية والثقافية على أرضها، وهو أمر طبيعي في المنطقة

التي سكنها الإنسان الأول، وصنع اللبنات الأولى في عمارة الحضارة الإنسانية من تراب أرضها وعرق أبنائها، ووضعها في خدمة البشرية جمعاء.

فقضية " حماية الأقليات " باطل يراد به باطل أكبر. إذ تستخدم هذه القضية لتحقيق أغراض خاصة للقوى الاستعمارية والدول الكبرى الإقليمية والدولية من أجل مشاريع الهيمنة والنفوذ التي تنتهجها.

وها هي ايران تطور هذه القضية لتحقيق مآربها تحت شعار " حماية المراقد الدينية " من أجل تبرير التدخل في شؤون الدول الأخرى، وتمهيد الطريق لمشاريع التدخل العسكري وربما التقسيم والاحتلال لأراضي الغير. وكان الوطن العربي عبر التاريخ مسرحاً لاستنبات هذه السياسات العدوانية ووضعها موضع التطبيق.

ارتبط موضوع الأقليات في الشرق العربي بالمسيحيين، وكان دائماً مثل أغنية الشيطان. يتناولها الغرب، ينفخ فيها ويعظمها عندما يريد، ويتجاهلها ويقلل من أهميتها متى يشاء. يستدعيها عندما تحتاجها مآرب السياسة والمصالح، فينفض الغبار عنها، ويعيد تأهيلها، ويرفع من إيقاعها لتبرير سياساته الخاطئة والحمقاء تجاه شعوب المنطقة، ويوجدبالتالي أرضية تسهل تدخله المتعدد الأشكال في شؤونها، فهي شديدة الحيوية له .

لم يكن المسيحيون العرب جزءاً من المسيحية الغربية بأي حال وفي أي عصر، بل كانت المسيحية الشرقية نسيج وحدها. تنتمي إلى فضاء ثقافي وحضاري شديد التمايز عن الغرب وشديد الالتصاق بالشرق وثقافاته وأديانه وطوائفه، ويأتي على رأس هذه القائمة: الإسلام. فالمسيحية الشرقية خارج الغرب، ليس فقط عقيدياً بل سياسياً وحضارياً أيضاً. وأحد أهداف ومآلات هذا الخطاب الغربي عن " حماية الأقليات " هو تحويل المسيحيين في بلادنا إلى مجرد أقلية، تتصرف بذعر الأقلية وبعقلية الخوف من الآخرين، وبالتالي يتحقق الانفصال عن الفضاء الطبيعي للمسيحيين المشرقيين، وهي بلادهم التي كانت الموطن الأول للمسيحية، ومسقط رأس أجدادهم عبر التاريخ، من أجل إيجاد فسحة ونقطة ضعف داخل المجتمعات الشرقية، تسهل عبور أيدي التدخل والعبث بمصير المنطقة متى تشاء وبالشكل الذي تريد.

يذكر التاريخ بجلاء وبكثير من التفاصيل الاعتداء على المسيحيين الذي قامت به الحملات الصليبية على الشرق في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، مبتدئة بتدمير القسطنطينية قلب المسيحية المشرقية آنذاك. إذ أقدم الصليبيون على إلغاء البطريركية الإنطاكية عام ١٠٩٨، حين أخرج البطريرك يوحنا السابع منها، وطرد إلى خارج أنطاكية. وعندما احتلوا القدس ١٠٩٩، عين الفرنجة بطريركاً لاتينياً على القدس، وأبعدوا الكهنة الشرقيين منها. فأي احترام

لمسيحيي الشرق واهتمام بمصيرهم يكنه هؤلاء ؟! بينما يذكر التاريخ في الوقت نفسه، كيف أعاد صلاح الدين الأيوبي بطريرك الأرثوذكس إليها، عندما استعاد أنطاكية من الصليبيين، حيث وقف الأرثوذكس موقفاً واضحاً، يؤيد المسلمين، ويساندهم في مواجهة الصليبيين. كما يذكر كيف فتح المسيحيون أبواب المدن السورية للمسلمين، وكيف تعامل المسلمون مع مسيحيي الشرق وعقائدهم وكنائسهم وبطاركتهم. فأي نفاق هذا في خطاب يعمل على فصل جذور مسيحيي الشرق عن ترابهم الوطني وعن شعبهم وأمتهم، عن ثقافتهم وروحهم وحياتهم، ليلحقهم زوراً وبهتاناً بـ " حام " يدعي حمايتهم ورعاية مصالحهم، بينما هو في الحقيقة ينفذ مآربه ومصالحه، ولو كان ثمنها أعناق الناس واستقرار البلاد؟!

للمسيحيين في الشرق تقاليد متميزة عن الجماعة الكبرى، وليس لأحد أن يطالبها بالتخلي عن هذا التمايز الثقافي والاجتماعي. فالتمايز الديني والعقائدي يستتبع تمايزاً كهذا، مثلما يستوجب احترام هذا التمايز وتوظيفه لإثراء الحياة العامة في البلاد. ويرى الفقهاء الأحناف أن " المقيم على أرض الإسلام من السكان الأصليين يعتبر حكماً جزءاً من الأمة، لأنه جزء من أهل دار الإسلام ". غير أن هذا التنوع والتمايز يشكل مشكلة حقيقية، عندما يصبح لهذا التمايز الثقافي وجود سياسي خاص ومنفصل، أي يصبح قناة للسلطة. أو عندما ترتبط الجماعة ببعضها قصد الدفاع عن نفسها. إن المخاطر تبرز عندما يتم

تأكيد التمايز كوسيلة لتحقيق المصالح السياسية والاقتصادية. ويتم الاستعمال السياسي للدين بقدر ما يضعف الاندماج الاجتماعي، وتنعدم الوسائل السياسية للتعبير عن المصالح الاجتماعية والاقتصادية بحرية في فعاليتها وحيويتها. وهو ما يؤسس له نظام الاستبداد، ويورثه للأجيال تشويهاً وتحطيماً للحياة العامة في أي بلد.

ليس المسيحيون طائفة، وليس لأحد أن يعتبرهم كذلك. لأن الطائفية هي الاستخدام السياسي للدين. إنها التعبير السياسي من المجتمع العصبوي الذي يعاني من نقص الاندماج الذاتي والتواصل والانصهار. والمسيحيون في سورية ليسوا في هذا الوارد، ولم يكونوا كذلك في أي وقت. وفي العصر الحديث حاولت الدول الاستعمارية فرنسا، روسيا، إنكلترا، ألمانيا، فرض حمايتها للأقليات الدينية في الدولة العثمانية. ورغم أن إصلاحات السلطان عبد المجيد عند منتصف القرن التاسع عشر ساوت بين المسلمين وغير المسلمين في الحقوق والواجبات، إلا أن شعار " حماية الأقليات " يبقى حاضراً على الأجندة الغربية طالما بقيت مآرب التدخل لتحقيق المصالح.

وفي عام ١٩٢٠ جاءنا الأجنبي ثانية ليقول بأنه أتى من أجل "حماية الأقليات " وقد رفض المسيحيون في ذلك الوقت هذا المنطق التبريري المكشوف. وخاصة من قبل رجال الثقافة والسياسة. مما دفع فارس الخوري أن يصرخ في جامع بني أمية الكبير بدمشق: " إذا كان وجود فرنسا في هذه البلاد هو لحماية النصارى، أنا نائب النصارى فارس الخوري أطلب الحماية منكم أيها المسلمون وأرفضها من فرنسا " .

لم يكن مقصد فارس الخوري أن المسيحيين بحاجة إلى حماية، إنما ليؤكد المؤكد وهو أن الحماية الحقيقية للإنسان فرداً كان أو جماعة، أكثرية أو أقلية، إنما تأتي من خلال الاندماج مع المجتمع وإنجاز الوحدة الوطنية التي تصبح وعاء ليس للدفاع والحماية فقط، إنما للعيش الكريم أيضاً. والدولة المدنية الديمقراطية التي تقوم على مبدأ المواطنة المتساوية في الحقوق والواجبات هي الضمانة الحقيقية والوحيدة التي توفر سبل العيش الحر والآمن للمرء في وطنه بغض النظر عن انتمائه إلى أقلية أو أكثرية. وليس للنظم الاستبدادية الأقلوية أن توفر ضماناً وحماية وحضوراً لأحد، حتى لأبناء الأقليات التي تستند إليها أو تحكم باسمها أو تدعي حمايتها.

ليست الأقليات هي التي تتعرض للمخاطر اليوم. فمنذ بداية الضغط الاستعماري على المنطقة، تركز الهجوم على الأكثرية لإضعافها وتحطيم مقاومتها وعلى الأرض لتفتيتها وإجراء التقسيم. كان هذا عندما جاءت مشاريع الهيمنة من الغرب، ويحدث هذه الأيام الشيء نفسه مع وجود مشروع الهيمنة الإيراني القادم من الشرق. فاليوم تشعر الأكثرية أنها مضطهدة ومهددة بوجودها. وهنا تصبح مسألة الأقليات وشعار حمايتها أحد أشكال التدخل والتفتيت وتحطيم المجتمع. فالإسلام والمسلمون هم الأكثر استهدافاً في هذه المرحلة.

التعدد سمتنا الأصيلة في الشرق وأبرز عطاءاتنا التاريخية، لا يمكن إلغاؤه أو التقليل من أهميته وفضائله. بل يمكن الاستناد إليه

في النهوض، لأنه يقدم معنىً خاصاً للوحدة، وشكلاً مميزاً لممارستها عبر تعميق الثورة كما يقول إلياس خوري.

يخطئ المسيحيون عندما يحولون المسيحية (بقصد أو دون قصد) إلى طائفة. يخطئون ليس فقط بحق المسيح ورسالته، بل بحق الكنيسة المشرقية ذات التاريخ الوطني العريق والناصع. لأنهم بذلك يسهلون على المستبدين والمتسلطين في الداخل والقوى الخارجية الطامعة استخدام المسيحيين مطايا لمآرب الآخرين. فالمسيحية دين ورسالة تبقى عصية على التشويه والتوظيف وفق أجندات الآخرين، لأنها شأن روحي سماوي أخلاقي. أما المسيحية الطائفة فيمكن تشييؤها وتوظيفها ووضعها في بازار الدعاية والتضليل، لأنها شأن سياسي خلافي مرتبط بالمصالح الدنيوية. وقد قالها المسيح بلغة واضحة قبل ألفين من السنين: " أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ". وليس من حق أحد أن يضع المسيحية في " ما لقيصر "

مسألة الأكثرية والأقلية ليست شأناً عددياً، إنها أمر نوعي بامتياز، حالة نفسية واجتماعية ومنظومة علاقات فكرية وسياسية وميدانية مع المحيط، تحدد موقع الشخص أو الجماعة من الشأن العام ومجريات الأمور في البلاد. وهذا واقع وموقع المسيحيين في الشرق العربي، فهم جزء مهمٌ من البيئة العامة للحياة العربية والثقافة العربية قبل الإسلام، وشريك فاعل ومتفاعل في البنية العامة والتفصيلية للثقافة العربية الإسلامية منذ خمسة عشر قرناً وحتى اليوم. فهل يحق

لأحد ، أو هل يستطيع أحد أن يفصلهم عن هذا الواقع وعن هذه الحقيقة ؟

وإذا كان من مصلحة الآخرين في الخارج وتحقيقاً لمآربهم أن يجعلوا من قضية " الأقليات " أو " حماية المسيحيين" مسمار حجا ، يفتح لهم أبواب التدخل عندما يريدون، ويوفر الأدوات لتحقيق مصالحهم بشكل دائم، فأي مصلحة للأقلية أو الأكثرية للمسيحيين أوالمسلمين في عملية خداع كبيرة كشفها التاريخ، وعراها اشتباك المصالح المتباينة بين القوى الكبرى الإقليمية والدولية ؟ !

الاستبداد وقوى الهيمنة الداخلية من جهة ، والقوى الدولية وشبكة المصالح الخارجية من جهة أخرى صاحبة المصلحة الحقيقية في طرح قضية " الأقليات " وتعميمها والاتجار بها. لأنها بذلك تبقي الشعب وإرادته وقواه الفعلية وطموحاته وأهدافه الحقيقية خارج الميزان وبعيداً عن الفعل. وعندما يتم الاختراق وتتعثر سلطة المخترقين وأدوارهم يستوي الأفراد والجماعات كونهم موضوعاً للانتهاك، ويصبح الجميع في موقع الضحية دون النظر إلى كونهم أقليات أو أكثريات. فعندما يقطع جذع الشجرة لا ينقذ الغصن المزهر من الذبول أن يقول: إنني لم أر الفأس.

مواطنون لا أقليات

أ. دندل جبر (سورية)

عضو هيئة العلماء السوريين

كثر الحديث عن الأقليات الدينية في البلاد الإسلامية بين منصف يتحدث عن المعاملة الحسنة والعادلة التي لاقتها هذه الأقليات وأنهم عاشوا في مجتمعات ودول هذه البلاد الإسلامية حياة المواطنة الحقة مع مواطنيهم من المسلمين وذلك نتيجة للتعليمات الصادرة عن كتاب الله القرآن الكريم والسنة النبوية وعن أفعال الصحابة الكرام ومواقف وأقوال توجيهات وتوصيات الفقهاء والعلماء .

وبين مجحف ومنكر لهذه المعاملة الطيبة التي كان نسيجها من العدل والمساواة والإنصاف والحياة الحرة الكريمة .

وبياناً للحقيقة وتجلية للمعاملة التي عاشتها هذه الأقليات الدينية والمذهبية في ظل المجتمع الإسلامي ودولته الإسلامية التي تخضع لتعاليم الشريعة الإسلامية في ظل المجتمع الإسلامي ودولته الإسلامية التي تخضع لتعاليم الشريعة الإسلامية وتتحلى بها ، ونتحدث عن بعض المصادر الإسلامية التي كانت الموجه الأصل لحسن التعامل مع هذه الأقليات واعتبارهم كبقية المواطنين المسلمين في هذه المجتمعات يجري عليهم ما يجري على المسلمين مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصياتهم النابعة من عقائدهم الخاصة.

ومن هذه الأصول :

- القرآن الكريم كتاب الله عز وجل :

- يقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة ٨ ـ ٩] .

الآية قررت البر والقسط مع غير المعتدين على المسلمين أو المقاتلين لهم، وأن اختلاف الدين لا يمنع من تطبيق الحق والعدل على غير المسلمين والإقساط لهم ما لم يكونوا معتدين .

ومن لم يتثبت المسلمون من معرفة أنه الذي نهاهم الله عز وجل عن مخالفته ومباطنته، فغير جائز أن يتخذوا منه موقفاً عدائياً ويمتنعوا عن مخالّته وصداقته ومعنى هذا أن غير المسلمين الذين ظهرت مودتهم أو لاتعرف لهم عداوة للدولة الإسلامية ومواطنيها يجوز للمسلمين الاستعانة بهم في شؤون الدولة الإسلامية ومعاملتهم كمواطنين على قاعدة " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " .

" ومعنى هذا أن ... الذين لا تعرف لهم عداوة للدولة الإسلامية وللمسلمين يجوز اتخاذهم بطانة يستودعونهم الأسرار ويستعينون برأيهم في شؤون الدولة المهمة (انظر: الدكتور عبد الكريم زيدان ـ أحكام الذميين والمستأمنين ـ ص٧٩) .

- قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]

وردت هذه الآية في أهل الكتاب خاصة - كما ذهب إليه أكثر المفسرين - والنص بعمومه يدل على جواز استشارة غير المسلم لأخذ الرأي منه ومشاركته في شؤون الحياة العامة بكل جوانحها.

- وقال الله تعالى ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

- وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] .

- وقال الله عز وجل: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] .

هذه الآيات تعطي دليلاً على حرية الاعتقاد، وأن الإنسان لا يجبر على عقيدة معينة، لأن الاعتقاد قلبي ولا يمكن تغييره بالإكراه، وتثبت إقرار الإسلام بتعدد الأديان والمعتقدات، وأن التعايش بين أصحاب هذه الأديان والمعتقدات يمكن أن يقوم على المودة والإحسان، وحسن التعامل وإشاعة الأمن والأمان في مجتمعاتها، وعدم العداوة والشحناء فيما بين أتباعها التي تؤدي إلى الفوضى وعدم الأمن والأمان، مما يسبب حياة نكدة في المجتمعات التي توجد فيها .

- السنة النبوية :

- يوجد بين أيدينا وثيقة المدينة التي كتبت بين يدي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمين من جهة، واليهود والمشركين من جهة أخرى .

وهذه بعض بنود هذه الوثيقة، التي سميت بـ (الصحيفة) أيضاً التي تبين وتحدد العلاقات بين ساكني المدينة من المسلمين ـ مهاجرين وانصاراً ـ واليهود والمشركين ومن يتبعهم وقد سماها البعض بـ (دستور المدينة) وقد احتوت على (٤٧) بنداً، كما أوردها الدكتور محمد حميد الله في كتابه القيم " مجموعة الوثائق السياسية " :

(١)- هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

(٢)- أنهم أمة واحدة من دون الناس .

(١٦)- وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

(٢٠- ب) وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن .

(٢٣)- وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد .

(٢٤)- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(٢٥)- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتِغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته ثم يتبع ذلك بقية قبائل يهود وبطاناتهم بيهود بني عوف، ويقول إن ليهود بني فلان ما ليهود بني عوف .

(٣٧)- وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصرعلى من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

(٣٧- ب)- وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم .

(٣٩)- وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

(٤٠)- وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

(٤١)- وأنه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها .

(٤٢)- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .

(٤٣)- وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

(٤٤)- أن بينهم النصر على من دهم يثرب .

(٤٥)- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه (لبسه: إذا حالطه واشترك فيه) فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين .

(٤٧)- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن، بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن برّ واتقى ومحمد رسول الله ﷺ .

وبالنظر في هذه البنود نرى أنه لم تحصر المواطنة في الدولة الإسلامية الأولى في المسلمين وحدهم، بل نصت الوثيقة على اعتبار اليهود المقيمين في المدينة من مواطني الدولة وحددت لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات، ففي فقرتها (٢٥) تقرر أن (يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، بلليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو أثم) ولا يقف الأمر عند يهود بني عوف وحدهم .وإنما تمضي النصوص من الفقرة (٢٦) إلى الفقرة (٣٦) لتقرر لباقي قبائل اليهود مثل ما تقرر ليهود بني عوف.

بل إن بعض النصوص تشير إلى واجبات على المشركين من أهل المدينة مما يشير إلى أنهم دخلوا في حكم الدولة الجديدة وخضعوا لأسس تنظيمها التي وردت في وثيقتها، وأوضح هذه النصوص، هو نص الفقرة (٢٠ ـ ب) الذي يقرر " أنه لا يجير لمشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن " وهكذا يتبين أن عنصر الإقليم (المدينة) والإقامة المرتبطة به عند نشأة الدولة، هو الذي أعطى هؤلاء اليهود والمشركين حق المواطنة، وضمن لهم التمتع بالحقوق التي كفلتها الوثيقة لهم .

ولا يختلف الباحثون من مسلمين وغير مسلمين ـ في أن الإسلام قد كفل لأصحاب العقائد والمذاهب الدينية المختلفة حياة كريمة عزيزة لحمتها العدل معهم والمساواة بينهم وبين المسلمين وفق أحكام الإسلام التي تقرر ذلك، وسداها الرفق بهم والتسامح معهم في كل ما لا يخل بأحكام الدين الإسلامي أو يعرض نظام دولته لخطر أو ضرر .

ويقول الأستاذ محمد سليم العوا: " وإن الأحكام الخاصة بمعاملة اليهود الواردة في وثيقة المدينة تصلح معياراً للحكم على الآراء الفقهية المختلفة في هذا الخصوص " (النظام السياسي للدولة الإسلامية ـ طبعة دار الشروق ـ ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م ـ ص٥٦ ـ ٥٧) .

ومن خلال النظر أيضاً في نصوص هذه الوثيقة يلاحظ المرء أن رسول الله ﷺ أراد أن يجعل من المدينة المنورة وطناً موحداً للمسلمين واليهود والمشركين وأن يجعل من هذه الشرائح التي تختلف في دياناتها وعقائدها شعباً واحداً، فعقد بينهم معاهدة تحقق تلك الأهداف التي أرادها لهم ونظم العلاقة بينهم بما ينسجم وتحقيق الدولة الإسلامية التي ترعى مواطنيها ولو اختلفت دياناتهم وعقائدهم، وتحكيم شرع الله في علاقاتهم بعضهم مع بعض، وبينهم وبين الآخرين .

" فهذه الوثيقة تجعل غير المسلمين المقيمين في دولة المدينة مواطنين فيها، لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين، وعليهم من الواجبات مثل ما على المسلمين " (المصدر السابق ـ ص٢٥٤ ـ ٢٥٥).

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي :

" ... وكان هذا العهد (الوثيقة) دستوراً لأهل المدينة جميعاً، مسلمين وغير مسلمين، لم يترك صغيرة ولا كبيرة تؤدي إلى الألفة والمحبة والتعاون إلا نص عليها وقررها ... وبهذا يكون النبي ﷺ قد أقام وحدة وطنية داخل المدينة، يعمل الجميع في إطارها ويلتزمون بكل بنودها،

متمتعين بعدل الإسلام وسماحته، لكل منهم حقوق وعليه واجبات، ومن وفى فله الوفاء، ومن نقض العهد فعليه ما نقض وعقاب ما جنى... وإذا كان اليهود أقلية في مجتمع المدينة فإن الإسلام جعل لهذه الأقلية حقوقاً، وجعل عليها واجبات، وهذا شأن الحكم العادل الذي لا يعتدي على ضعيف ولا يظلمه ولا ينكر حقاً من حقوقه، ما دام يؤدي ما عليه من واجبات، فالكل سواسية أمام القانون، ومن يأثم على القانون فإنما إثمه على نفسه " (يوميات الأخبار ـ صحيفة الأخبار ـ ١٩٩٣/٧/٩م) ثم يقول في إحدى مقالاته في صحيفة الأخبار: "...إن الإسلام هو صاحب مبدأ الوحدة الوطنية بين الأكثرية والأقلية وبين المختلفين في العقائد على السواء..." (المصدر السابق ـ ١٩٩٣/٧/١٦م)

ويرى الدكتور مصطفى محمود عفيفي ـ بحق ـ :

١- أن النص في الصحيفة ... " قد سبق المواثيق العالمية والدساتير الوطنية بقرون عدة في مجال تطبيق مبدأ الحرية الدينية في ظل ظرف الأمن والسلام الاجتماعي القائم على مبدأ الوحدة الوطنية بين ذوي العقائد الدينية المختلفة " (نقلاً عن الدكتور إدوار غالي الذهبي ـ معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ـ ط١ ـ١٩٩٣م ـ مكتبة غريب ـ ص١١٨ـ ١١٩) .

٢- جاء في عهد رسول الله ﷺ لأهل نجران بعد أن أصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية: "ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم

وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته " (الإمام أبو يوسف ـ الخراج ـ ص٧٢).

٣- كماجاء في كتابه صلى الله عليه وسلم لأهل اليمن بعد أن أصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنه من كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها ..." (أبو عبيد ـ الأموال ـ ص٣٥) .

٤- ومن أقواله ﷺ: " من ظلم معاهداً أو نقصه حقاً أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة " (رواه أبو داود عن عدة من أبناء الصحابة) .

- أفعال الصحابة وأقوالهم :

١ - مصالحة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع قبائل تنوخ وبهرا، وبني تغلب بالشام وكانوا على دين النصرانية على أن يدفعوا الجزية باسم الزكاة كما هو الحال بالنسبة للمواطنين من المسلمين. (الأحكام السلطانية والولايات ـ للماوردي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ص١٨٤. ابن القيم ـ أحكام أهل الذمة ـ ج١ ص٧٦ ـ ٧٧، أبو عبيد ـ الأموال ـ ص٢١٧) يقول ابن قدامة الحنبلي " فاستقر ذلك من قول عمر ولم يخالفه أحد من الصحابة فصار إجماعاً، وقال به الفقهاء بعد الصحابة منهم: ابن أبي ليلى، والحسن بن صالح، وأبو

حنيفة، وأبو يوسف، والشافعي " (المغني لابن قدامة ـ ج١٠ ص٥٩٠ ـ ٥٩١. أحكام القرآن للجصاص ـ ج٤ ص٢٨٦) .

٢- روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ على باب قوم وعليه سائل يسأل، شيخ كبير، ضرير البصر، فضرب على عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت، فقال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال: أسأل الجزية ... فأخذ عمر بيده، وذهب إلى منزله، فرضخ له بشيء، من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين، وهذا من مساكين أهل الكتاب ووضع الجزية عنه وعن ضربائه " (الإمام أبو يوسف ـ الخراج ـ ص٧٠) ودلالة ذلك أن الدولة الإسلامية تتعامل مع مواطنيها على حد سواء وبغض النظر في أديانهم ومعتقداتهم .

٣- وجاء في العهد الذي أعطاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل القدس بعد أن أصبحت ضمن الدولة الإسلامية وأهلها في عداد مواطني هذه الدولة " هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها، وسائر ملتها، أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقض منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم " (الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك ـ ج٣ ص٦٠٩) .

وهذا ما يؤكد أن دماء وأموال جميع مواطني الدولة الإسلامية على مختلف دياناتهم ومللهم معصومة لا يجوز التعدي عليها بدون حق مشروع، والحفاظ على حرية معتقداتهم وأماكن عبادتهم وأن لا ينالها من الأذى والظلم شيء بسبب معتقدات أهلها.

- كتاب خالد بن الوليد إلى أهل دمشق تأميناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم .

- كتاب حبيب بن مسلمة لأهل تفليس من أرض الهرمز أماناً لهم ولأولادهم ولأهليهم وأموالهم وصوامعهم وبيعهم ودينهم وصلواتهم، وكان ذلك في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه (أبو عبيد - الأموال - ص٥٦٧ - ٥٦٨) .

- ورد في وصية الإمام علي - رضي الله عنه - رابع الخلفاء الراشدين إلى مالك بن الأشتر النخعي حين ولاه مصر: " وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخٌ لك في الدين، وإما نظير لك في الخَلْق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه " (نهج البلاغة - من خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - ج٣ ص٨٤) .

إنها أعلى درجات المساواة في المواطنة التي يجب أن يتعامل بها المسؤول في الدولة مع المواطنين على اختلاف في اتجاهاتهم وآرائهم

ومعتقداتهم وأديانهم حيث يجب أن تتمثل مسؤولية الحاكم في التعامل مع مواطني الدولة الإسلامية قائمة على الرحمة والمحبة واللطف والعفو والصفح على السواء .

- من أقوال فقهاء المسلمين وعلمائهم :

يؤكد فقهاء المسلمين وعلماؤهم على مختلف مذاهبهم الفقهية ، أنه يجب على المسلمين في مجتمعاتهم الإسلامية دفع الظلم والأذى والعدوان عن أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى، والمحافظة عليهم في الدولة الإسلامية لأنهم بعهدهم مع المسلمين صاروا مواطنين من أهل دار الإسلام وصار من حقهم أن يعيشوا في دولة الإسلام ومجتمعه مواطنين آمنين على أنفسهم وأموالهم ومعتقداتهم .

بل إن بعض الفقهاء صرح بأن ظلم أحد من أصحاب هذه الأديان الأخرى أشد من ظلم المسلم إثماً ، وهذا الرأي قال به ابن عابدين في حاشيته " رد المحتار على شرح الدر المختار " .

ويقول الكاساني في كتابه بدائع الصنائع عن أصحاب الديانات الأخرى المقيمين في المجتمع الإسلامي كمواطنين " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " أي لهم ما للمواطنين من المسلمين وعليهم ما على المسلمين، وهذا من معاني المساواة في المواطنة بين أبناء الديانات المختلفة (بدائع الصنائع ج٧ ص١١١) .

ـ حدث في عام ١٩٨١م ما يعرف بأحداث الزاوية الحمراء، في مصر حيث تشاجر اثنان من المواطنين أحدهما مسلم والآخر قبطي، وامتدت آثار الشجار حتى أدت إلى قتل الكثيرين من الفريقين إلى جانب مآسٍ أخرى، فاضطرت الحكومة للتدخل، بعدما أثيرت هذه الخلافات على منابر المساجد ومجتمعات الكنائس، وكادت تؤدي إلى إثارة أكبر للنعرات الطائفية والحوادث الدامية مما اضطر دار الإفتاء في مصر إلى إصدار الفتوى رقم " ١٣١٨ " ومما ورد فيها :

١- لا تفرقة في الإسلام بسبب الدين أو الجنس أو اللون .

٢- دماء غير المسلمين وأموالهم وأعراضهم حرام كحرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم. (عن الشيخ عبد الحميد السايح ـ مدخل إلى معاملة غير المسلمين في الإسلام ـ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ـ مؤسسة آل البيت ـ ج١ ص١٦ ـ عمان ١٩٨٩م) .

شهادة :

يقول الدكتور إداور غالي الذهبي :

" وفيما يتعلق بمصر، يرى بعض المؤرخين أن المصريين لم يتحولوا إلى أغلبية مسلمة إلا فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، رغم أن الفتح العربي الإسلامي لمصر قد تم سنة ٦٤٠م، وهذا دليل قاطع على تعايش الديانتين ـ الإسلام والمسيحية ـ مئات السنين داخل آلاف العائلات، وأن التحول إلى الإسلام قد تم بدون إكراه من

الحكام المسلمين " (إدوار غالي الذهبي - معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي - ط١ - ١٩٩٣م - مكتبة غريب - ص٤٥ - ٤٩) .

من أقول المستشرقين :

- كتب جوستاف لوبون: " إن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، ولم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وقد سار خلفاؤه على سنته " ثم يضيف قائلاً: إن هذا الرأي سبقه إليه كثير من الأجانب من الكتاب الأوربيين مثل روبرتسون في كتابه (تاريخ شارلكن) إذ قال: " إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية " (جوستاف لوبون - حضارة العرب - ترجمة عادل زعيتر - ص١٢٨) .

- وكتب أيضاً السير توماس أرنولد: " لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الاسلام إنما اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسلمين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح " (سير توماس أرنولد - الدعوة إلى الإسلام - ترجمة الأساتذة: حسن إبراهيم - عبد الحميد عابدين - إسماعيل النمراوي - ص٥١) .

- وكتب الشاعر الأمريكي رونالد ركويل بعد أن أشهر إسلامه: " لقد راعني حقاً تلك السماحة التي يعامل بها الإسلام مخالفيه، سماحة في السلم وسماحة في الحرب، والجانب الإنساني في الإسلام واضح في كل وصاياه " (انظر: محمد إبراهيم ـ كلمات من الغرب ـ الأهرام ـ ١٣/٤/١٩٩٣م) .

لماذا الأقليات؟!
هل في وطننا أقليات وطائفية؟!
وما هي المواطنة؟

أ. عصام فارس الحرستاني (سورية)

وهل المواطنة إلا التسامح والتعايش وقبول الآخر وإن اختلف معه عقيدة أو قومية...

ولا تتحقق هذه المواطنة، وسَمِّها إن شئت، التسامح أو قبول الآخر إلا إذا تخلى كل الأطراف عن العصبية المقيتة..

ونحن في عالمنا العربي اليوم وأمس وغداً نتمسَّكُ بما حذرنا منه رسولنا العربي محمد صلى الله عليه وسلم بقوله الخالد:

«ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[1].

والإسلام يقبل في عضوية المجتمع الإسلامي غيرَ المسلم، ويأمر بحمايته، فإذا فات غير المسلم رابطة الإيمان، فلن تفوته حماية

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في العصبية، رقم (٥١٢١).

المسلمين وعدل الإسلام وبر المجتمع الإسلامي، والشاهد على ذلك قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

وقوله تعالى:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

«ألا مَنْ ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طِيب نفسٍ، فأنا حجيجه يوم القيامة»[1]

فالمواطنة مبدأ سامياً من المبادئ الإسلامية التي أكّدها القرآن الكريم بقوله تعالى مرّات عدة:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [آل عمران: ١٩].

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

([1]) سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء رقم (٣٠٥٢).

وهذه الآية أو الآيات التي ذكرنا بعضها أكبر دليل على إبطال من زعم أن الإسلام انتشر بالسيف ودعا إلى التطرف، ولم يلجأ المسلمون إلى الحرب أو الجهاد إلا لرد العدوان، ومنع تعسُّف السلطات الظالمة من استعمال الناس حقهم في اعتقاد ما يشاؤون و في الدعوة لما يعتقدونه..

فالإكراه منهج يتناقض مع التسامح والتعايش وقبول الآخر ومع المواطنة الحقة ويؤكد ذلك القرآن الكريم حيث يقول:

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وعليه فالمواطنة الحقة تدعونا إلى الوقوف بكل حزم ضد أي ظلم أو عدوان يتعرض لهما أي إنسان بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو عقيدته لأن ذلك مُنافٍ لحقوق الإنسان التي تدعو إلى احترام الشعوب وحرية اعتقادها وتعبيرها، وقد ذكر لنا التاريخ أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تجواله شبه اليومي في تفقده لأحوال الرعية رأى شيخاً طاعناً في السن يتسول في الطريق، فسأل عن أمره فعلم أنه يهودي، فحزن لما أصابه واضطره للتسول، وأمر بأن يُخصص له ولنظرائه مرتب ثابت من بيت مال المسلمين يتيح له حياة كريمةً، وهو الخليفة والحاكم نفسه صاحب القول المأثور والعبارة الشهيرة:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

الأديان حرب على الطائفية

"إن الطائفية عداء وخصام واستعلاء طائفة على طائفة، وظلم طائفة لأخرى، فمن يستطيع أن يجرؤ على القول بأن هذه هي روح الدين في قرآنه وإنجيله؟ وأن هذه تعاليم الدين في إسلامه ومسيحيته؟

حين اشتدّ أذى قريش بالمسلمين لم يجد رسول الله خيراً من نجاشي الحبشة يلجأ إليه أصحابه فيجدون عنده الأمن وحرية العبادة، فأمر أصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة، وكان الملك النصراني عند ظن الرسول الإسلامي، فاستقبلهم أحسن استقبال، وأبى أن يسلمهم إلى قريش وقال لهم: بل تنزلون عندي أعزَّة مكرمين.

ولما جاء نصارى نجران إلى الرسول في المدينة استقبلهم في المسجد وأنزلهم فيه، وترك لهم حرية الصلاة في مسجده وفق ديانتهم، فكانوا يصلون صلاة النصارى في جانب، ورسول الله يصلي صلاة المسلمين في جانب!

وهكذا تآخى العارفون بدينهم.. يوم كان النصارى يفهمون روح مسيحهم، ويوم كان الإسلام يعلن للدنيا مبدأ حرية الأديان وتقديس الشرائع وتكريم موسى وعيسى وإخوانهما من أنبيائه ورسله، فمتى حدثت الطائفية في تاريخنا؟

ألا إنها لم تحدث في عهد محمد رسول الله، ولا في عصر خلفائه الراشدين، ولا في عصور الأمويين والعباسيين، وإنما حدثت حين

ابتعدنا جميعاً عن أديانا وسمحنا للمتاجرين بها أن يعكروا صفو قلوبنا، وللأعداء أن يفرقوا وحدة صفوفنا.. يومئذ فقط مدت الطائفية رأسها لتلصق بأديانا وبأمتنا مخازيَ ليست منها.

فالطائفية ليست عميقة الجذور في أديانا ولا في طبائعنا، وإنما هي بذرة خبيثة دخيلة نحن الذين سمحنا لها أن تنمو وتترعرع في تربتنا..

وإن القضاء عليها لن يكون بكلمات النفاق من السياسيين المحترفين، ولا بمؤتمرات تعلن الوحدة متسترة بطائفية مقنعة، وإنما يجب القضاء عليها بعلاج من داخل أنفسكم أيها الناس.. من ضمائركم، من قلوبكم، من أخلاقكم، من إيمانكم، من قرآنكم وإنجيلكم، من محمدكم ومسيحكم.. هنا هنا علاج الطائفية المقيتة.. وهنا هنا يتم الشفاء!"[1].

وفي التطبيق العملي للمواطنة في سورية خاصة في خمسينيات القرن الماضي نرى أن القضية ليست قضية أقلية وأكثرية، ولا تقاس بالحجوم، وإنما هي قضية خبرات واختيارات وثقافات وبصارة بالموقع المجدي فقد تولى فارس الخوري رئاسة وزراء سورية عدة مرات، ورئاسة البرلمان، وعدة وزارات، وكان يحرص على أن يكون في وزارته وزير من الإخوان، وكان مندوب سورية في مجلس الأمن، وهو

([1]) من كتاب "هكذا علمتني الحياة" للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ص٢٣٩، ٢٣٨.

مسيحي عربي لبناني إذ لم تكن الإقليمية والتعصب لهما دور، فالسوري واللبناني والأردني والفلسطيني كلهم من بلاد الشام الممتدة من تبوك إلى جبال طوروس، لذا لا غرابة أن يقود الثورة السورية كل من سلطان الأطرش وإبراهيم هنانو وحسن الخراط لأنهم لم تكن تفرقهم الطائفية المقيتة.

لا توجد منطقة تعج بالتنوع الثقافي والديني واللغوي مثل بلاد الشام أو سورية الطبيعية، ولم يعرف تاريخ المنطقة الإبادة التي عرفها الغرب حتى الحرب العالمية الثانية، كل الأديان التي سبقت الإسلام ظلت موجودة، وكذلك كل المذاهب المنشقة عن الإسلام، أو المنتمية له.

إذا كانت أمريكا تفخر بأنها قدمت أمريكياً من أصل أفريقي رئيساً، ففي سورية تولى رئاسة الوزراء مسيحي وكردي..

وانتخب المعارضون السوريون ومنهم الإخوان المسلمون جورج صبرا رئيساً للمجلس الوطني وكذلك الكردي عبد الباسط سيدا والتركماني الدكتور خالد خوجة.

إن سورية في الخمسينيات في أقل من عشر سنوات من الاستقلال مرّت بتجربة فذة، فقد كان هناك أحزاب ومجلس نيابي وصحافة حرة، وشعب معبأ قومياً، ومنظم ديمقراطياً وواعٍ سياسياً وبقي على هذه الحال إلى أن باغتته الانقلابات العسكرية المشبوهة وآخرها كان في الثامن من آذار ١٩٦٣ الذي أقفل الباب في وجه كل أشكال العمل السياسي، وآل الأمر إلى طائفية سياسية عصبية فئوية أقلية

نشرت الرعب حتى في أوساط الأقلية التي تحكم باسمها بحيث صورت لطائفتها أنها مهددة بالخطر من قبل الطوائف السياسية الأخرى إذا لم تتكتل حوله.

وعليه فإن طريق الخلاص الوحيد الذي يضمن لسورية الاستقرار والأمن والأمان هو في عودة الجيش إلى ثكناته، وحلّ معظم الفروع الأمنية، وتشكيل حكومة إنقاذ وطني لفترة مؤقتة لا تتعدى ستة أشهر تدعو إلى انتخابات برلمانية بإشراف منظمات عربية ودولية نزيهة.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة/ د. بسام الضويحي	٥
هكذا كنّا قبل الأسد/ د. عبد الله الطنطاوي	٩
رؤية في المواطنة/ د. سماح هدايا	٢١
ضدّ الطّائفيّة/ أ. **مادونا عسكر**	٣٧
مكونات الشعب السوري والمكون العلوي بالذات/ **أ. محمد السيد**	٤٩
المسيحيون والثورة السورية مواطنون لا أقلية/ **د. جورج صبرة**	٨٩
مواطنون لا أقليات/ أ. دندل جبر	١٢٩
هل في وطننا أقليات وطائفية؟! وما هي المواطنة؟/ أ. عصام فارس الحرستاني	١٤٥

تعريف بمركز أمية للبحوث والدراسات الاستراتيجية

مركز مدني مستقل، يعمل في إنتاج ونشر المعرفة الاستراتيجية لتكون مادة أولية أمام صناع القرار.

ويهدف مركز أمية إلى:

- امتلاك رؤية شاملة ودقيقة دائمة التحديث للمشهد الدولي ، وتداعياته على المنطقة العربية والإسلامية.
- المشاركة الفاعلة في إنتاج المعرفة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية العالمية المعمقة وفق قواعد ومعايير البحث العلمي العالمية.
- نشر وتعزيز المعرفة الاجتماعية والسياسية على دوائر الباحثين والنخب وصناع القرار.
- خدمة ودعم مشاريع الإصلاح والتنمية للدولة الساعية للنهوض.

لذا فإن المركز يسير في ثلاث خطوط متوازية لضمان تحقيق أهدافه:

أولا : الجهود البحثية الداخلية للعاملين بالمركز

ثانياً : التواصل والتعاون مع مراكز البحوث والدراسات والأكاديميات العالمية ذات الصلة بعمل المركز ، وعقد شراكات تعاون متنوعة.

ثالثاً : التنسيق مع الباحثين من خارج المركز في إنتاج الملفات البحثية المتخصصة.

ويسير المركز في عدة مجالات للعمل منها:

١- إنتاج ونشر المعرفة الاستراتيجية والتدريب عليها في مختلف فروع العلوم الإنسانية (اجتماعي، سياسي، اقتصادي، قانوني، إعلامي).

٢- الرصد والتحليل الإعلامي والسياسي.

٣- إنتاج البحوث والدراسات.

٤- إنتاج التقارير والنشرات الدورية.

٥- إنتاج الكتب والملفات المتخصصة.

٦- التنظيم والمشاركة في المؤتمرات والندوات وورش العصف المتخصصة.

٧- تنظيم المسابقات البحثية لاكتشاف الباحثين والمفكرين الشبان الجدد.

٨- إنتاج والمشاركة في البرامج والحوارات التلفزيونية.

صدر عن مركز أمية

- سورية تاريخ وثورة ، إعداد مجموعة من الباحثين.
- سورية: أزمة نظام وثورة شعب ، الدكتور عمر اسكندر.
- الأمل وأثره في حياة الأمة، الدكتور محمد عبد الله أبو صعيليك.
- فقه النصيحة ، الدكتور محمد عبد الله أبو صعيليك.
- الخمينية شذوذ في العقائد وشذوذ في المواقف ، الشيخ سعيد حوى.
- المشروع الإيراني في المنطقة العربية والإسلامية ، إعداد مجموعة من الباحثين.
- نماذج من تزييف تاريخنا المعاصر (سورية وتركيا أنموذجاً) ، إسماعيل غريب الكيلاني.
- رسائل في فقه الرباط والجهاد ، الدكتور محمد سعيد بكر.
- فكر وثورة ، الدكتور أحمد سعيد حوى.
- فارس الخوري: الوطنية – العروبة – الإسلام، المحامي محمد العنجريني.
- التميز في الخطابة والإلقاء ، الأستاذ سالم موسى.
- مختصر كتاب المشروع الإيراني في المنطقة العربية والإسلامية، مروان زكي.
- العائلة الأسدية وجرائمها في سورية ولبنان وفلسطين، للأستاذ محمد السيد.
- الثورة السورية محرقة "حزب الله"، مجموعة باحثين.
- الوجيز في عقيدة الشيعة الرافضة ، دندل جبر.
- تداعيات ما يجري في العراق وسوريا على دول الجوار والإقليم، مجموعة من الباحثين والسياسيين
- النظام السوري والجريمة المستمرة من عام ٢٠١١ إلى ٢٠١٥، مجموعة من الباحثين

إن شعورنا بالأخطار المحدقة بأوطاننا، كان الدافع لإصدار هذا الكتاب، فالنار الطائفية تأكل الأوطان بمن وبما فيها من حضارة ومدنية وقيم إنسانية وروحية.

وأجمل ما في هذا الكتاب أن مؤلفيه من مدارس فكرية متعددة، جمعهم حبُّ الوطن، والخوف عليه من المتآمرين في الداخل والخارج الذي كان وما زال يتكئ على من في الداخل من المتواطئين معه.

صرخة.. نرجو ألا تكون في وادٍ غير ذي زرع.

تصميم: نائل عودلي 00962 79 721 2693

دار عمار للنشر والتوزيع
عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٢٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com